

علي عطا

زيارة أخيرة للأم كلثوم

رواية



الدار المصرية اللبنانية

زفارة أأففة لأم كلثوم

روافة

علف عطا

زيارة أخيرة لأم كلثوم: رواية /علي عطا .- ط 1.-

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2020.

200 ص؛ 20 سم.

تدمك: 9789777952613

1- القصص العربية.

أ- العنوان. 813

رقم الإيداع: 2019/25824

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 202 23910250 +

فاكس: 202 23909618 + - ص. ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2020م

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء الدار.

جميع الحقوق محفوظة للدار المصرية اللبنانية، ولا يجوز،

بأي صورة من الصور، التوصليل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحتها عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

زيارة أخيرة لأم كلثوم

رواية

علي عطا

إلى حنان شادي وأروى رمضان..

وناس "الكوثر"

.....

"مَن لا ذاكرة له، فليصنع له ذاكرة"

ماركيز

....

"العربُ لا يحصلُ لهم المُلكُ إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على
الجُملة"

ابن خلدون

....

- "قلبي منقبض".

استيقظتُ على النداء الغامض ذاته.

منذ أن قررتُ الإقامة في غرفة مستقلة، تكرر استيقاظي فجأة على صوت واضح لشخص أعرفه. يبدو من صوته أنني أعرفه. يأتي الصوت من ناحية الباب، فأفزع، وأنظر صوبه، فلا أجد أحدًا سواي. تكرر ذلك ولكني لم أتمكن أبدًا من تحديد صاحب الصوت الذي يوقظني من النوم مفزوعًا، رغم اعتقادي بأنني حتمًا أعرفه. مرة يكون الصوت لرجل، ومرة يكون لامرأة، وثالثة لطفل أو طفلة، وأحيانًا يكون لأكثر من شخص.

تكرر ذلك، ففكرتُ أنها ربما رسائل تنبهي إلى ضرورة مراجعة المصحة.

أو ربما تكون إشارات إلى قرب رحيل خالتي، ولا علاقة لها باكتئابي المزمن.

انقضى نحو عامين على آخر زيارة لعيادة مصحة الكوثر. كنت في انهيار مشابه لمرات ثلاث سابقة، تقرر في كل منها أن أنضم إلى أهل الكوثر لبضعة أيام. لا أذكر الآن ملابس ذلك الانهيار الأخير، لكنه استلزم أن يصحبني زميلان من مصر الجديدة إلى المصحة في المعادي، بعد الاتصال بالدكتور عادل رأفت، الذي أخبرهما بأنه سينتظرنني.

كانت الساعة تقترب من الثالثة عصرًا، وما إن وصلنا بسيارتي التي قادها أحد زملاء العمل، حتى لمحيتُ دعاء تنتظر أمام البوابة الخارجية. رأيتني أنزل مترنحًا من السيارة، فأقبلت نحوي وفي يدها حقيبة، خمّنت فورًا أنها تضم ملابس ومستلزمات أخرى سأحتاجها حتمًا، بمجرد أن يقرر الدكتور عادل رأفت دخولي المصحة للعلاج.

كان في بالي أنه سيقدر دخولي المصحة مجددًا، لكنه مكث ساعتين معي في العيادة الخارجية. سمح لدعاء بحضور نحو عشر دقائق من المقابلة، ثم استأذنها في أن تنتظر في استراحة الزوار. كنت أبكي وكان هو يشد من أزري، وأخيرًا قال لي: "عد إلى البيت يا حسين" .. كنا قد أصبحنا صديقين. وبات يراودني شك في أنه لهذا السبب، ربما لم يعد الطبيب الأمثل لي، استنادًا إلى ما يتردد عن أنه لا ينبغي أن تقوم صداقة حميمة بين المريض النفسي وطبيبه، تلغي المسافة اللازمة للتشخيص الدقيق وتتجنب اتخاذ أي قرار تشوبه العاطفة.

لكني، يا طاهر، مازلت لا أتصور أن ألجأ إلى طبيب آخر.

كتب لي رويشتة بعدما أفتعني بأن دخول المصححة للمرة الرابعة ليس مناسباً لي، خصوصاً وأن الأمر لا يستلزم ذلك حتماً، حتى ولو كان في فداحة ما حدث في المرات السابقة.

قال: "ليس مستحباً أن يتكرر دخولك المصححة".

قال أيضاً: "قاوم واتخذ ما يطلو لك من قرارات في مواجهة كل ما أو من يؤذيك".

اهترأت الروشتة، لكنني مازلت محتفظاً بها وألتزم بمضمونها: قرصان صباحاً من "الوسترال 50"، ثلاثة أقراص على مدار اليوم من "ستابلون"، وقرص واحد من "سيروكويل 25" في المساء.

مع تلك الروشتة أتناول حبة واحدة من "كونكور فايف" للضغط صباحاً، ومعها حبة واحدة من عقار "سيدوفاج" للوقاية من السكر، وكبسولة مكمل غذائي.

قبل ذلك كله أذخن سيجارة، بعد تناول ملعقة من العسل، حتى لا أؤذي معدتي الخالية! كان أهل الكوثر، أو لنقل معظمهم، يفعلون ذلك بمجرد أن يصل إلى الواحد منهم كوب شاي بحليب، يسبق تناول الإفطار والأدوية في الفناء في تمام الثامنة صباحاً.

في البيت بات استيقاظي قبل العاشرة والنصف صباحاً نادراً.. أقصد بالاستيقاظ مغادرة السرير. أما النوم فيستعصي على الحضور قبل الواحدة والنصف صباحاً.. نومٌ بلا طعام، سواء في أوقات عمقه، أو أوقات تقطعه.

إنه حتى بات بعيد المنال دون "السيروكويل"؛ هنا في هذا البيت، بما أن مزاجي يتعكر بمجرد أن أدخله، وأجد أن دعاء لا تزال على تجمها المصنوع.

نعم، أرتاح حين أعود إلى البيت ولا أجدها، كطفل سيرتاح من أم اعتادت أن تعكنن عليه.

ستكون خالتي أم كلثوم آخر الراحلين من إخوة أُمي الأشقاء وغير الأشقاء.

تقول الأسطورة إن عددهم فاق الأربعين؛ أنجبهم جدي لأُمي؛ الأسطى توفيق ريحان يوسف من ثلاث زيجات.

وفي تفاصيل الأسطورة نفسها أن جدي النبوي الخالص ارتبط برابعة وهبت نفسها له ولم ينجب منها؛ لأنها حين دخلت في زمرة حريمه، كانت قد تجاوزت القدرة على الإنجاب.

وقيل: بل بنى لها غرفة، قبل أن يتزوجها على يد مأذون القرية. كانت مقطوعة من شجرة وكان يحممها ويطعمها ويطببها بنفسه.

لكن هناك من يرى مبالغة في عدد من أنجبهم توفيق الأول. منهم الحاج محمود زكريا، ابن خالي وعمدة قرية الدراكسة القريبة من المنصورة، والتي شهدت معجزات جدي منذ صباه المبكر وحتى رحيله وهو في عمر جاوز المائة عام، مع الإقرار بأن لتوفيق أولادًا وبناتًا ماتوا صغارًا، وفاتت ذكرة الأحياء أن تسجلهم في عداد من أنجبهم الجد الأسطوري.

ووفقًا للحاج محمود، تزوج جدي من صباح بنت عياد، ثم من صبحه هاشم، وأخيرًا فاطمة الجمال، التي لا أعرف إلى الآن لماذا يسميها بعض أقاربي من جهة أُمي فاطمة أبو العلمين.

من الأولى أنجب خمسة ذكور وبناتًا واحدة: محمود، زين العابدين، ياقوت، زكريا، عزت وهند. ومن الثانية؛ أنجب ذكرين وثلاث إناث: دار السلام، خضرة، تمر، الزبير، وثابت. ومن الثالثة التي هي جدتي: زهرة، قرنفة (أُمي التي أَدعوها انتصار)، أم كلثوم، بكر، محمد ومحمود.

عن نفسي لم أتعرف على أي من إخوة أُمي غير الأشقاء، باستثناء خضرة التي كانت تعيش في قرية المحمودية، وهند التي كانت تقيم في قرية قريبة تدعى عزبة المحمودية.

أما محمود الأخير، وهو شقيق أُمي من الأب والأم، فلم أراه مطلقًا ويبدو أنه مات طفلًا. حمل الاسم نفسه لأكبر أبناء توفيق، وهذا يعني أن محمود الأول كان غالبًا في عداد الأموات، عندما رزق توفيق بأخر أبنائه في أواخر الأربعينيات على الأرجح.

زرْتُها ومعى أخي ماهر بعد أيام من إصابتها بجلطة، تركت نصفها الأيسر مشلولًا.

دعاء سبقتنا في أداء الواجب ومعها ابنتنا البكرية حنان.

كانت خالتي تتطق بصعوبة.

قبّلت جبينها وتبادلنا الكلام المعتاد في مثل تلك المواقف.

تذكرت ارتباطي الشديد بها، وخصوصًا في الجانب المتعلق بسعيي المضمّر نحو وضع أفضل. هي أسهمت بلا شك في تغذية حرصي على قراءة الصحف، منذ أن كنت في المرحلة الإعدادية، ثم قادني ذلك إلى تفكير غائم في أن أعمل صحفيًا. وهو ما اتضح إلى حد ما بعد زيارتي لمعرض القاهرة للكتاب، وأنا في الصف الثاني الثانوي، ثم وأنا أشاهد معها العرض العسكري، الذي انتهى بقطع الإرسال، لنعلم بعد ساعات نبأ اغتيال الرئيس المؤمن.

اتضح لي وأنا أعودها أنها زهدت الحياة؛ إلا قليلًا، فلمحت طيف عقل، وعلى وجهه ابتسامة رضا.

يبدو أنه كان في استراحة نادرة من ضجره المقيم، فيما كانت "الست" تشدو من الراديو، الذي وضعوه بالقرب من خالتي فوق السرير: "كان لك معايا أجمل حكاية في العمر كله".

بعد أيام، ستفقد خالتي النطق وسترفض تناول أي طعام، ثم سيحملونها فاقدة الوعي إلى العناية المركزة في مستشفى المنصورة الدولي. ثم ستصل أختي أمل لتعلمني بالخبر المتوقع.. جرى ذلك صباح 3 سبتمبر 2018.

أمل أيضًا هي من أخبرتني بوفاة أمي في 11 فبراير 2013، فيما كانت ابنتي حنان تلد أول أحفادي في اللحظة ذاتها، وكانت ذكرى تحيي مبارك تبهت تحت وطأة الالتفاف على الثورة لوأدها.

كلمت أخي ماهر وعرفت أنه علم أيضًا بالخبر، أثناء وجوده في عمله في مدينة نصر.

اتفقنا على أن أتحرك أنا من شارع نهرو بمصر الجديدة، على أن نلتقي في ميدان العباسية لنسافر إلى المنصورة، عسى أن نلحق الجنازة وطقوس الدفن.

قبل بلوغ مدخل نفق العباسية تباطأت حركة السير. كانت على يساري سيارة "سكودا" يجلس إلى جوار سائقها طفل في نحو الثامنة من عمره. نظر السائق نحوي وسألني: "أنت مصري؟" قلت له: "أيوه".

قال: "لو بتتعذب في البلد دي مش هتسيبها؟".

قلت له: "لو فيه فرصة هسيبها طالما الحكاية كده".

قال: "أنا عمري 47 سنة وبيعذبوني بقالهم سبع سنين، وعشان كده هسيب البلد".

"قلت له: طيب راجع نفسك عشان خاطر الطفل ده".

هنا أمسك بمصحف وقال لي: "والمصحف هعدي الحدود دلوقتي ومش هرجع تاني أبدًا. أنا لازم أنفذ كلام ربنا". ثم انطلق بمجرد اشتعال الضوء الأخضر، في اتجاه شارع الجيش، فيما توجهت أنا

يميناً لأجد أخي ماهر في انتظاري.

رأيتني على باب قصر يسكنه موظفون متأنفون. استوقفني ضابط بملابس مدنية وطلب الاطلاع على بطاقتي الشخصية، وما إن لببت طلبه حتى بادرني بالقول: "على فكرة، إحنا مش بنخاف من إلكي زيك". لم أعلق. ثم اصطحبني إلى آخر صف في قاعة مخصصة للندوات وقال: "اجلس هنا"، قبل أن يتقدم نحو المنصة.

ما إن استيقظت حتى رحتم أفكر في مغزى ذلك الحلم، ثم استغرقت في التفكير في أنني أريد أن أجرب السكر.

أن أشرب حتى الثمالة، كما يقال.

وعندما أفيق أقرر أن الخمر تذهب العقل، وأنها تفقد الوقور وقاره، ثم أعود إليها وأقول: "ما الكارثة التي يمكن أن يرتكبها إنسانٌ يفقد عقله لبعض الوقت، ثم يعود إليه ثانية أو لا يعود مطلقاً؟".

مثلاً؛ أريد أن أنام مجدداً مع امرأة، تريد هي أيضاً أن تنام معي من دون وجل.

كنت أفعل ذلك منذ أن بلغت الحلم.

في غرف عدة فوق سطح بيت في عزبة عقل، وفي فضاء قريب من حمام وحيدٍ يستخدمه ساكنو الغرف نفسها، مستنداً معها إلى جدار بارتفاع نصف متر؛ مما يسمح بأن يلمح أي منا الصاعد على سلام البيت، لنفترق من فورنا، إذا تأكدنا أنه سيكمل الصعود حتى يبلغ السطح باعتباره إما من سكانه، أو أنه أحد ضيوفهم، أو مجرد راغب في ضبط إيريال التلفزيون.

كان الوجل حاضرًا بالتأكيد، ثم كان يتقهقر، وكذلك الشعور بالذنب الذي سرعان ما كان يتلاشى فيتجدد لقاء الجسدين اليافعين.

جسدي أنا وجسد سبهام، وقد كانت في مثل عمري.

يدٌ خشنة من شدِّ حبال "تحبيش" أفاص الخضار والفاكهة، تدعكُ نهداً بازغاً في يمين الصدر، ثم تنتقل إلى توعمه في اليسار.

نتأوه هي نشوة؛ بصوتٍ خفيض، وأكتمُ أنا صرخة تدهمني الرغبة في إطلاقها مدويةً.

يلتصق البدنان حتى ليخيلُ إلى الرائي أنهما بدنٌ واحد تهزه رعشة اللذة.

عملت سبها لبعض الوقت في بوفيه كلية الآداب بعد حصولها على دبلوم التجارة. كانت علاقتنا قد فترت في ذلك الوقت، وتجدد تفكيري في ابنة عمتي دعاء كزوجة محتملة مبنى كلية الآداب، غير بعيد من شارع جيهان. يعرفه الناس بهذا الاسم. اسم جيهان السادات الذي اختصر في أذهانهم إلى جيهان وحسب، ومع ذلك يدعو البعض، يا صديقي، عبر السوشيال ميديا، إلى حملة لإعادته إلى اسمه الأصلي: شارع عبدالرحمن الخميسي.. الشاعر والقاص والفنان، مكتشف سعاد حسني.

الجدل بشأن شارع جيهان يذكرني كذلك يا طاهر بإطلاق اسم محمد أنور السادات، على ميدان التحرير، الذي يقال إنه قبل 1952 كان يسمى ميدان الإسماعيلية.

مازال الناس يقولون التحرير. أنا نازل التحرير؛ خصوصاً أيام الثورة. لكن كثيرين من ركاب المترو باتوا يقولون: "أنا نازل السادات، أو هركب من السادات"، في إشارة إلى محطة المترو، التي تحيط مداخلها بميدان التحرير من الجهات الأربع.

قد تتعجب يا طاهر من افتتاحية تجددُ اتصالنا بعد انقطاع دام شهورًا طويلةً على ذلك النحو.

أنا نفسي أتعجب من إباح خاتمة رواية "صورة عتيقة" لإيزابيل الليندي على الزج بنفسها هنا، وأعلم أن ذلك قد يربكك أنت شخصيًا، فلربما تفضل اتصال السرد من دون إحالات مربكة!

"لولا جدتي إلزا، التي جاءت من بعيد لتضييء الأركان المظلمة في ماضي، ولولا آلاف الصور الفوتوغرافية المترامية في بيتي، كيف كان بإمكانني رواية قصتي هذه؟ كنت سأضطر إلى صوغها من المخيلة، دون أي مادة سوى الخيوط المنفلتة من حيوات كثيرة لأناس آخرين، وبعض الذكريات المخادعة.. إن الذاكرة خيال، نختار أكثر ما فيها تألقًا وأكثر ما فيها قتامة، متجاهلين ما يخلجنا.

إنني أحاول بجزع، من خلال الصورة والكلمة المكتوبة، أن أنتصر على شرط حياتي المحكومة بالزوال، فأقتنص اللحظات قبل أن تشحب ويبهت لونها، وأجلو الغموض عن ماضي."

لم تغادر 1981 بعد، يا صديقي، مع أننا في 2018، التي احتفلتُ في بدايتها بقليل من الحماس ببلوغ ابني باهر الثامنة عشرة من عمره.

في منتصفه جرى احتفالٌ باهتٌ ببلوغي الخامسة والخمسين.

وفي نهايته تأملتُ مغزى تصديق دونالد ترامب على قانون، مُنح اسم السادات بمقتضاه "ميدالية الكونجرس"؛ بعد أن صدق في وقت سابق من العام نفسه على نقل السفارة الأمريكية إلى القدس، باعتبارها عاصمة لإسرائيل.

تذكرت فورًا زيارة "الرئيس المؤمن" للمنصورة، التي قيل إن الأجهزة الأمنية أحبطت مخططًا لقتله خلالها، ثم وقع القتل على الهواء مباشرة بعدها بأيام. وراودني هاجسٌ يا صديقي بأن ذلك الترامب أو ربما من سيخلفه سيصدق، ذات يوم قريب، على قرار بشأن سيناء وكأنها من أمور أمريكا الداخلية، ليبلغ ذلك العبث ذروة لا بد أنه سيبلغها.

العام نفسه ينقضي، وأزمة "عرب اليوم"، لا تزال على حالها.

لا نقبض مرتبانتنا.

والمستكتبون مضى نحو عامين على آخر مرة، تسلموا فيها شيكات.

والكبار في الإدارة والتحرير، لم يعودوا كبارًا.

يدٌ خفيةً سلبتهم بالتدريج ما كان يضعهم في خانة مَنْ يقررون.

باتوا بلا حول ولا قوة، بمن في ذلك مالك الجريدة الملياردير.

رأينا مبارك يشهد ضد مرسي.

سمعتُه يحكي عن 800 مسلح تسللوا من غزة، واقتحموا السجون ووصلوا إلى ميدان التحرير، واعتلوا أسطح البنايات ليطلقوا الرصاص على الحشود!

عن نفسي لم أصدق.

أما عقلٌ، فلاح لي وأنا أتأمل ذلك الكذب المنظم تجاه كل ما يمت إلى الوجه الناصع للثورة بصلية، وهو يزفر متجهماً كعادته.

لم أصدق كلامًا سبق تلك الشهادة وتلاها، عن حتمية تعديل الدستور، "بما أنه ليس قرآنًا"، وسخرت من كلام متزامن لسياسة شغلوا مناصب في العهود كافة التي تلت 1952، عن ضرورة العودة إلى "روشتة"، وضعها طه حسين قبل 80 عامًا لإصلاح التعليم.

بدا لي عقل، متعجبًا كذلك، يا طاهر من حكم بسجن امرأةٍ لثلاث سنوات؛ "لأنها تحرشت جنسيًا بقرءٍ محبوس في قفص يتصدر مدخل محل في المنصورة لبيع الحيوانات الأليفة"، ومن قرار فصل طالبة؛ "لأن زميلا لها حصنها خارج قاعات الدراسة بكلية الآداب في جامعة المنصورة".

بدا متعجبًا، أو هكذا تصورته يا صديقي.

كان عقل على الحال نفسها؛ وأنا أفكر في أن الصفقة التي تجلت في تعديل دستور 1971، بالنص على أن الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريع، في مقابل حق الرئيس بنص تعديل مادة أخرى من الدستور نفسه، في الترشح للرئاسة لمدد غير محددة، لم تحل دون إقدام رافعي راية الشريعة على اغتيال السادات، بعد الإفتاء بتكفيره.

الصفقة ذاتها لا تزال على حالها حتى اللحظة يا طاهر كما تعلم.. على الأقل في الشق الخاص بالتشريع، بعد أن أتاح تعديل تبناه مبارك اختيار الرئيس من بين أكثر من مرشح، وفي باله أنه يفتح الباب لتوريث الحكم بضمآن رضاء قتلة سلفه.

بعد نزولي من المكتب، اتجهت إلى حيث ركنت سيارتي، ولاحظت أن إحدى العجلات تحتاج إلى ضبط هوائها. مررت على محل كاوتش قريب من ميدان روكسي، وضبطت هواء العجلات الأربع، وقررت أن أتزود ببزوين كاف، بعد أن أصطحب أخي ماهر المنتظر في ميدان العباسية. هو يعمل موظفًا مدنيًا في وحدة عسكرية. التحق بتلك الوظيفة بعد مرور بضعة أعوام على حصوله على دبلوم الصنایع، قسم كهرباء. هو أصلًا معفى من الخدمة العسكرية لضعف نظره.. منذ أن كان في الصف الأول الإعدادي، كنا نلاحظ حكاية ضعف نظره تلك، ولكنه لم يستطع مطلقًا التوافق مع النظارة الطبية، وظل حتى بعد تجاوزه الخمسين من عمره يرفض ارتداؤها، ربما حتى لا يقال عليه "أبو أربع عيون"، كما كان أقران طفولتنا يقولون على كل من يضع نظارة طبية فوق عينيه.

توقفتُ حيث كان ينتظرنِي في نهاية النفق، استعدادًا لدخول شارع رمسيس؛ لنبدأ السفر إلى المنصورة لنلحق جنازة خالتنا.

قال إن ابنه علاء الدين الذي التحق بكلية التجارة في جامعة القاهرة، بعد تعافيه بمعجزة من سرطان الدم، سينضم إلينا ومعه أمه داليا، الشقيقة الصغرى لدعاء، فيما ستبقى البناتان ميادة التي حصلت مؤخرًا على ليسانس الحقوق، وندى الطالبة بكلية الآداب قسم اللغة العبرية، في البيت في صفط اللين.

كنا أنا وماهر، وأخونا الأكبر حسان، قد اشترينا في منتصف التسعينيات ثلاث قطع زراعية في صفط اللين وقريبة في الوقت ذاته من بولاق الدكرور، ثم شرعت أنا وماهر في بناء بيتين فوق قطعنا بعد تبويرهما بمعرفة المالك، وهو موظف في وزارة الزراعة. قطعتي مساحتها 100 متر وقطعته مساحتها 75 مترًا. أما حسان فقد انسحب قبل دفع بقية أقساط قطعة الأرض التي تخصه ومساحتها 75 مترًا، وفضل شراء شقة في المساكن الشعبية في عين شمس؛ حيث تقيم أختنا زينب مع ابنتها حبيبة وابنها رمضان.. هما ابناها من زوجها الثاني محسن الصعيدي، وهو سائق ميكروباص. أما زوجها الأول أحمد متولي، وهو ابن عمنا في الوقت ذاته، فقد أنجبت منه أربع بنات، تزوجن جميعًا، بعد أن تركهم أبوهم صغارًا في كنف أمهم التي طلقها بناء على طلبها، لأنه كان يستمرئ التبطل ويتهرب من الإنفاق عليها وعلى بناته.

كلنا غادرنا المنصورة إلى القاهرة، باستثناء أمل التي تزوجت من أحد جيرانا ويعمل نقاشًا، وأنجبت أحمد وأسماء.. زوجها إبراهيم الصايح يستمرئ هو الآخر القعود بلا عمل، بحجج واهية، ولكن أمل لم تملك شجاعة زينب، وبالتالي استمرت شطف العيش، حتى بعد أن تزوج ابناها.. حسان، أكبرنا كان آخر من تزوج، وهو الآن أب لبنات وولدين.. بات - كما سمعت- يواظب على الصلاة في زاوية قريبة من شقته، بعد أن أرهقته أمراض غامضة.

كان علاء الدين الذي يكبر ابني باهر بنحو عامين، ينتظرنا أسفل الكوبري الدائري قبيل مدخل قليب، ومعه والدته ترتدي الأسود.. أخبرني ماهر بذلك، فقلتُ: "على بركة الله".

تلح عليك يا حسين ذكريات عذبة عقل؛ خصوصًا عامك الذي بدأت تغادر فيه طفولتك.

عام 1981 الذي احتقلت في منتصفه للمرة الأولى بعيد ميلادك.

احتقلت بصخبٍ يليق بطفل، أعتقد أنه أفلح أخيرًا في الإمساك ببذرة أملٍ في حياة أفضل، في ظل تشجيع صادق من أمك وأبيك ومعهما الخالة أم كلثوم.

هل كان باهر - بعدما أصبح يساويك تقريبًا في طول القامة بشهادة من حملة 100 مليون صحة- يحتفل ببلوغه الـ18 مع أصدقائه في 31 يناير 2018 على أنغام زاعقة لأغاني المهرجانات، وفي باله بذرة الأمل نفسها؟

هل تصدق أنت الآن، أنك بلغت هدفك القديم؟

يزفر عقل ضجرًا، بينما كنتُ مستغرقًا في محاولة غير جادة؛ لإيجاد إجابة شافية عن هذا السؤال.

أنا أيضًا في حيرة يا طاهر إزاء تحول دعاء.

دعاء من موليد برج الأسد. هل لهذا دلالة ما؟ ولدت في 20 أغسطس في العام نفسه الذي ولدتُ أنا فيه، ولكن لا أدري لماذا رسخ في ذهني أنها تصغرني بعام واحد.

هي لا زالت تقول ذلك لأولادنا؛ حنان وحنين وباهر: "أبوكم أكبر مني بسنة".

أنا فعلاً سبقتها إلى الوجود بأقل من شهرين.. تعثرت في إتمام تعليمها، ولم تتجاوز المرحلة الابتدائية. لا أراها في الحلم إلا على صورتها التي سبقت زواجنا. شابان يعوق أمرٌ ما إتمام زواجهما. وأحيانًا أراها وقد تخطى كل منا الخمسين عامًا من عمره، ولا نزال نسعى للاقتران، ولكن تحول دون ذلك عقبات شتى.

أنا نفسي الآن أختلف عما كنته.. كلانا تغيّر، ولا أقول تبدّل. أنا ودعاء نتبادل القسوة، ولا يبدو أن ذلك يمكن أن ينتهي. نتبادلها حتى في الأحلام، أحلامي، فأنا لا أعرف بم تحلم هي، بما أن كلامنا النادر لا يتطرق إلى هذا الأمر.

بدأ 2018 وانتهى، وكلانا ينام وحده.

حدث ذلك بعد 28 عامًا على زواجنا.

ثلاثة عقود لم ينم كل منا لحاله في سرير؛ إلا اضطرارًا.

فهل كان على أبي الذي كان متحمسًا لارتباطي بابنة شقيقته؛ أن يترك لي يا صديقي شيئًا مكتوبًا. إجابات عن أسئلة لم يتسن لي طرحها عليه وهو حي.. لكن كيف كان يمكن أن يحدث ذلك، حتى ولو كان يعرف الكتابة؟

لا أذكر أنه خصّني بكلام. ربما فعل ذلك في مرات قليلة قبل أن يموت وهو في الثالثة والسبعين من عمره، فيما كنتُ أنا في الثانية والثلاثين.

كيف كان يتحمل تَمَرُّ بعض شباب ضائع، كانوا هم غالبية زبائنه في السنوات الأخيرة من حياته، عندما استسهل التجارة الصغيرة في "أبو صليبية" و"سبراكس" و"الألماني"، مع مقويات من نوعية "غذاء الملكة"؟

أنا نفسي عملت لفترة وأنا في المرحلة الإعدادية في بيع حبوب الهلوسة في كشك الخواجة ميشيل، الذي يتصدر ناصية شارع جانبي يطل على شارع السكة الجديدة، المشهور بمحاله التجارية الممتدة من ميدان محطة المنصورة إلى ميدان العباسي.

هذا الصنف من الحبوب كانوا يسمونه "الأبيض" .. اديني اتنين أبيض.. اديني ثلاثة أبيض.

شارع السكة الجديدة، اسمه الرسمي شارع الثورة، وفي منتصفه تقريبًا تقع مطرانية المنصورة، وبجوارها يقع محل النظارات الذي عملت فيه صبي مشاوير، وأنا بين السادسة والسابعة من عمري.

كنت وقت الغداء، وأنا أعمل مع الخواجة ميشيل؛ أذهب إلى ميت حدر. طبق عدس بالشعرية مع لوازمه، نظير شلن "خمسة قروش". الشلن الآن بات يقال على الخمسة آلاف جنيه.

الأسطى إبراهيم السمكري قال لي، يا طاهر، عندما ذهبت إليه بالسيارة مدمرة من الخلف قبل انتهاء 2018 بشهرين: "الحكاية دي هتكلفك مش أقل من ريال". كان يقصد أنها ستكلفني ليس أقل من 20 ألف جنيه، تشمل شغلُه هو شخصيًا وشغل السروجي والعفشجي والدوكو، وشراء نصف خلفي استيراد، من هنجر محمد سعد في منطقة المعصرة القريبة من حلوان".

ذلك الدمار نجم عن حادثة وقعت، عندما كان باهر يقود السيارة قرب زهراء المعادي.. كان يستعيرها بين وقت وآخر؛ ليذهب بها إلى مراكز الدروس الخصوصية، التي اعتمد عليها تمامًا بعدما بات الذهاب إلى المدرسة غير محبذ، من الطلبة والمدرسين والإدارة على حد سواء.

أما أعجب ما حدث مع إبراهيم السمكري، فهو أنه قال لي فجأة، وأنا أهم بمغادرة ورشته: "أنا ليا عندك طلب، عاوزك تشوفلي واسطة عشان أشتري كارنيه نقابة الصحفيين!".

- "إيه رأيك أعزمك على طبق فول عند العبقري؟".

سألني طاهر ذلك السؤال بعد أن توطد تواصلنا، خلال ترده المنتظم على مكتب "عرب اليوم" في شارع رستم بجاردن سيتي. أصلاً، كان ترده على المكان يرتبط بمتابعته طلب هجرة قدمه إلى سفارة كندا، التي يلاصق مبناها المبنى الذي كان يضم مكتب "عرب اليوم" في ذلك الوقت.

قلت له: "موافق، بس أنا اللي أحاسب".

ابتسم بفيض من التسامح، ثم قال: "يا سلام يا عم.. أنا عادي أحاسب على الفول، والمرة الجاية اعزمني أنت عند حاتي الجيش، أو أسماك النيل".

تبادلنا الضحك.

لا أعرف من المقصود تحديداً بوصف العبقري.. المهم أنه يحيل فوراً إلى دكان ضيق بين بنايتين عتيقتين في جاردن سيتي، أمامه طاولات عدة للراغبين في تناول طبق فول، يمكن أن يوصف كذلك بالعبقري. زبائنه غالبيتهم متقفون: صحفيون وسينمائيون ورسامون، وأظن أنه ظهر في لقطة سريعة في فيلم "خيانة مشروعة" للمخرج خالد يوسف.

المكان يتوسط محيطاً يضم قصر السينما التابع لوزارة الثقافة، ومؤسسات روز اليوسف والشعب والتعاون الصحفية ومكاتب صحف عربية.. عمل العبقري كان يبدأ قرب غروب الشمس ويمتد إلى قلب الليل. وفي الصباح يدفع بعربة فول إلى ناصية الشارع لتلبي طلبات زبائن مختلفين، من سائقي سيارات إلى العاملين في قسم قصر النيل وعدد من البنوك.

ما إن جلسنا حتى بادر الطاهر بطلب طبقين من الفول بالزيت الحار، مع السلطة والمخلل والبصل، ثم قال لي: "أنا شايف إن أزمة (وليمة لأعشاب البحر) وراها مؤامرة إخوانية".

كنا قد بدأنا حديثنا في أمر تلك الأزمة في المكتب، انطلاقاً من أنباء مظاهرة عنيفة لطلاب جامعة الأزهر، تطالب بسحق كل من هم وراء نشر (أو بالأدق إعادة نشر) رواية الكاتب السوري حيدر حيدر، الذي لم نسمع به في مصر قبل اندلاع شرارة الاحتجاج على طباعتها في سلسلة "أفاق عربية"، التي كان يرأس تحريرها وقتها إبراهيم أصلان.

قلت له: "أنا أرى أن الجماعة دخلت على الخط، عبر جريدة (الشعب) اليمينية بعد أن نشر أديب مصري ما يشبه البلاغ بشأن تلك الرواية في جريدة (الأسبوع) المملوكة لمصطفى بكري المحسوب على اليسار".

رش الطاهر فوق طبقه حفنة من الشطة، وقال لي: "ايه رأيك في طبق جبنة قريش مهروسة؟".

قلت: "ماشى، بس من غير شطة الله يخليك".

ضحك وسألني: "هنتشر ديوانك إمتى؟".

قلت: "لسه مكمش.. بس غالبًا هنشره في هيئة الكتاب. يمكن يطلع على المعرض على أول السنة الجاية".

سأل: "ولسه الملهمه بتراجع قصايدك؟".

قلت له: "أبوا، لسه. بتقول مش عايزة أي إشارات تدل عليها في أوساط النميمة بتاعتنا".

قال: "حلو، أنا كمان على وشك الانتهاء من مجموعتي القصصية الأولى".

ثم استطرد كأنه كان يرغب في ألا تنتهي جلستنا، قبل إيداء ملاحظة مهمة: الشاب اللي شفته قاعد عندك في المكتب من كام يوم ودود جدًا.. حسيت وهو بيسلم عليّ بحرارة أنه يعرفني من سنين. كمان شفت كده في طريقة كلامه معاك إنه بيحترمك خالص".

قلت: "ده فخري، بلدياتي. اتعين معيد، من كام شهر. ماشاء الله عليه.. عنده قدرة عجيبه على حفظ النصوص اللي بيقرأها".

قال: "ربنا يوفقه، بس أنا عاوزك تديني مجموعة من قصايدك. أنا حاسس أنك متخرج تنشرها في صحف.. خليني أعرضها على رئيس تحرير مجلة "أدب وفن"، لن أخبره في البداية أنها لك، فإذا أعجبته وقرر نشرها سأخبره بأنك صاحبها".

أعجبتني الفكرة، فقلت: "ماشى كلامك".

ثم انتبهت للافتة معلقة على باب المحل: من كان جائعًا، ولم يجد ثمن الطعام، المطعم يرحب به. سأرى بعد ذلك يا طاهر لافتات مماثلة تتصدر واجهات مطاعم عدة في وسط البلد.

أتعجب يا طاهر، من عدم قدرتي على تذكر كيف بدأت صداقتنا.

لكنني متيقن من أننا صديقان، منذ نحو عشرين عامًا. هذا هو المهم، أما التفاصيل فلقد فاتني تسجيلها أولاً بأول في يوميات.

أنا كنت منهُمًا في العمل بين "عرب اليوم"، ووكالة الأنباء وأنت كنت منهُمًا في تدبير مصادر للرزق في مصر، التي تعتبرها منفي مع السعي المحموم نحو الهجرة.

بالتأكيد تقبع التفاصيل في مكان ما في الذاكرة التي تستعصي الآن على التداعي.

ستقول: "استعن بالخيال لسد الثغرات. وسأضحك، قبل أن أنتبه إلى وجهة الاقتراح".

ما كان لي أن أنسى، حتى لو لم تجدد اتصالك بي من مهجرك.

ما كان لي أن أنسى أنك أقرب أصدقائي إلى نفسي.. كنت تحكي لي وأحكي لك. لا أذكر أننا توادعنا عند سفرك. لكن الجميل هو أنك راسلتني بمجرد استقرارك في المهجر.. ألا يدل ذلك على أنك تعدني صديقًا مقربًا، وربما أكثر بما أنه كثيرًا ما يحلو لك حتى الآن أن تتناديني بـ "ابن أم"؟

في أواخر 1981 التحقتُ بالصف الثالث الثانوي بمدرسة الملك الكامل، في حي توريل في غرب المنصورة.

"توريل" هذا يا طاهر هو الخواجة الذي تبرع في الثلاثينيات بأكثر من 12 ألف متر مربع في المنطقة ذاتها التي تحمل اسمه إلى اليوم، لتقام عليها حديقة للحيوان، مشروطاً ألا يُنتفع بتلك الأرض إلا لهذا الغرض.

كنتُ أمرُّ بها في طريقي إلى المدرسة، وفي طريقي من المدرسة إلى البيت.

"لو اضطريت أبيع هدومي عشان تكمل تعليمك هعمل كده".

هذا أهم ما تبقى في ذاكرتي من كلام أبي لي، بعدما خاب أمله الصامت في أخي الأكبر.

هذا ما كان يشعر به بالتأكيد تجاه بقية إخوتي.

ربما قال لماهر ولأمل الكلام نفسه، بما إنهما كانا يسيران في الدراسة على نحو مطمئن، قبل أن يتعثرا في طريق كان يمكن أن يفضي بهما إلى الجامعة. أما زينب، فتعثرت لها جاء مبكراً، في مرحلة مدرسة عمر بن الخطاب الابتدائية بالحسينية، والتي التحقنا بها واحداً تلو الآخر، باستثناء حسان الذي مكث في مدرسة النصر الابتدائية قرب السكة القديمة لأربع سنوات فقط.

"حاجة ساقعة، ببيس، سباتس".

كان يحمل جردلاً، كالذي كانت تحمله "هنومة" في فيلم "باب الحديد"، لتتبع لركاب القطارات ما يروي العطش. لم أعاصر تلك المرحلة في حياة أبي، لكن أمي حكّت عنها.. كان يقفز من القطار بعد أمتار من مغادرته محطة المنصورة، متجهاً إلى دمياط شمالاً أو إلى طنطا وبنها والقاهرة جنوباً. وأحياناً كان يتعثّر بعد أن يقفز وهو يحمل الجردل الذي يحوي زجاجات فارغة وأخرى مملوءة، وسط ماء بارد، كان قبل قليل مكعبات من الثلج.

وبحسب حكايات أمي، عمل أبي أيضاً قهوجياً. وكان في مرحلة ما يرش بيوت الريفيين بمبيد حشري، حاملاً على ظهره قارورة معدنية يتدلى من أعلاها خرطوم. وحكّت أمي كذلك أنه عمل لفترة - قبل أن يتزوجا- في مصانع المحلة الكبرى للنسيج، وعمل في صباح المبكر في ورش صناعة علب الكرتون في باب الشعرية بالقاهرة حيث وُلِد. أما خاتمة المهنة في بطاقته العائلية، فكتب فيها: بائع متجول.. كنت أجيب كلما سئلت في المدرسة عن عمل أبي: بائع متجول.. أمي كانت تقول إن عمل أبي هو "سريح"، أو "أرزقي".

لم يحدث أبداً أن رأيت أبي غير صائم في رمضان، مع أنه كان صاحب كيف، أو مكيفات كما كان ينطقها. كان يثور لأتفه الأسباب. لم يكن ذلك يحدث في رمضان.. كان يستيقظ من النوم قرب العصر، ويتولى بنفسه كنس السطح ورشه وإعداد الخُشاف. كان يعد الكنافة بنفسه أيضاً. نشترها مصنوعة يدوياً يرش العجين السائل على صاج مستدير، يعلو فرناً بلدياً يقام خصيصاً للمناسبة في شارع المحطة الفرנסاوي، ثم يزال في نهاية الشهر.

كان أبي يترك الكنافة تتهوى بمجرد جلبها، ثم يخلطها بالسكر الخشن والفول السوداني المقشر، وجوز الهند المبشور والزبيب، ويضعها في الصينية، التي توضع على وابور الجاز، ويتابعها أبي إلى أن يتوقع نضج الكنافة من أسفل ليقلبها حتى يحمر الوجه الأعلى. وهناك في الأخير السكر المعقود.. السكر يذاب في قدر معين من الماء، ثم يوضع على النار حتى الغليان، ويترك ليبرد نسبياً ثم يرش على الكنافة.

كان يقول لي: "روح لعمك شعبان وخذ منه المجلات والجرايد إللي تعوزها وأنا هحاسبه".

يقصد بائع الصحف في ميدان المحطة، الذي أصبح يسمى ميدان أم كلثوم، بعد أن توسطه تمثال لوكب الشرق باعتبارها من أعلام الدقهلية.

لكن في غضون السنوات التي مرت من طفولتي حتى الآن، تضاعفت أعداد السكان والتحت المنصورة بمحيطها الريفي إلى الأبد، من تلك الجهة ومن سواها من الجهات، فظهرت أحياء سكنية جديدة، ربما تزيد مساحتها عن مساحة المنصورة كما عرفتها طفلاً.

الآن يجري العمل على قدم وساق يا صديقي لخلق منصوره أخرى، لم تطأها قدمي وربما لن تطأها أبداً. أما سوق الجملة، حيث عملتُ إلى ما بعد تخرجي من الجامعة حتى التحاقني بالعمل في "عرب اليوم"، فتجدد مطالبة الرسميين بنقله بعد أكثر من خمسين عاماً على وجوده، في ذلك المكان المطل من أحد جوانبه على شارع عبدالسلام عارف.

لكن إلى أين؟

بالتأكيد إلى المكان نفسه الذي لم تطأه قدمي من قبل، أو غير بعيد منه.

يقال إن محلاته التي يبلغ عددها 200 محل، ستشغل مساحات أوسع، بل وسيضاعف عددها، وستنتهي ممارسة تجارة الدليفري بشكل أفضل.. ستكون لكل منها صفحة على الإنترنت، ولن يكون على الراغب في شراء كرتونة مانجو مثلاً، إلا أن يبعث برسالة تحدد طلبه وتتضمن عنوانه.. يمكنه أيضاً أن يطلب عبر رقم هاتفي ساخن، كما يفعل حين يريد طلباً من ماكدونالدز أو كنتاكي.

وماذا عن الأقفاص المصنوعة من جريد النخل؟

بات وجودها نادراً يا حسين.. حرفتُك القديمة تقترب بسرعة الآن من الاندثار، إن لم تكن قد اندثرت بالفعل. ومع ذلك كثيراً ما ترى نفسك في الحلم تعود إليها. "عرب اليوم" انهارت ومرتبك من الوكالة لا يصمد لأكثر من عشرة أيام، ويضيع معظمه في سداد فواتير وأقساط.

عزبة عقل نفسها تغيرت ملامح بعض شوارعها، وباتت غريبة بالنسبة لي لغياب معظم ناسها، الذين كنت أعرفهم، خصوصاً شارع المحطة الفرنسي، الذي كنا نلعب فيه كرة القدم، ونتسابق فوق أسفله بدرجات نستأجرها بالساعة من أنور توحيد، في الحسينية، أو منصور العجلاتي في شارع المجاري.

كنت أستغرب من أن محل أنور توحيد موجود في الحسينية، مع أن بيته مواجه لأحد جوانب بيتنا في عزبة عقل. لعائلته بيوت ومحال عدة في العزبة، فلماذا اختار أن يفتح محله في الحسينية؟

كان من أوائل من اكتشفوا حاجة مصيفي جمصة ورأس البر إلى دراجات يستأجرها المصطافون؛ خصوصاً من الشباب والأطفال، فيما كان شقيقه مرسي توحيد يدير مقهى، يقع أسفل منزل يملكه، يواجه باب المحطة الفرنسي.

في ذلك الوقت كانت الدراجات تعتبر أيضاً وسيلة مواصلات، قبل أن يزداد الاعتماد على سيارات التاكسي والميكروباص وحتى التكاتك؛ في الانتقال من مكان إلى آخر داخل المدينة، وفي محيطها.

كان شارع المحطة الفرنسي يبدأ من تقاطعه شرقاً مع شارع البحر الصغير، وينتهي غرباً بنفق تعلوه السكة الحديد الميري ويوصل إلى الحسينية.

هذا النفق يسميه الناس كوبري عزبة عقل، أو الكوبري السفلي.

على جانبيه باعة ومتسولون.

إلى الآن لا يزال هناك باعة ومتسولون.

يبدو يا طاهر أنني أعوض صمتي خلال ترددك على مكتب "عرب اليوم" في جاردن سيتي، وتحديدًا في شارع رستم بالقرب من مبنى السفارة السودانية.. السفارة جرى نقلها إلى مكان آخر بعد التهاب محيطها، الذي يضم سفارات كندا وسوريا وأمريكا وبريطانيا أثناء الثورة، ومكتب "عرب اليوم" جرى نقله أيضًا إلى مصر الجديدة في بداية 2015، ومن وقتها بدأ انحدار الجريدة نحو التوقف التام.

بالتأكيد كنا نتكلم.. ربما أكون قد تطرقت في كلامي معك في ذلك الوقت إلى أمور أحكيها لك هنا، لا أدري. أذكرك فتى أسمر طويلًا ونحيلًا، مثل خالي محمد، لا يخلو كلامك، كما كتابتك، من الولع بالمجاز، والاستشهاد بمقولات لأعلام الثقافة الإنسانية.

كانت ثقتي في الشعر الذي داهمني بشدة غير مسبوقه في أواخر عام 1999 مهتزة للغاية، وبعد أن جمعنا العيش والفول عند العبقري، زاد ارتياحي للحديث معك يا طاهر، وغمرتني الفرحة بنشر بعض قصائدي في مجلة "أدب وفن"، من خلالك. في نهاية 2004 سافرت أنا إلى السعودية للعمل، وقبل أن أعود مجددًا إلى مصر في فبراير 2007، كنت أنت قد سافرت إلى مهرجان المختر، وهكذا لم تنتح لي فرصة توديعك، لكنني لم أفقد الثقة أبدًا في أنك ستعود يومًا إلى مصر، أو حتى إلى السودان.

على أية حال، ها نحن نتواصل إلكترونيًا.

الآن دعني أوصل سرد بعض ما أظن أننا لم نثرثر بشأنه قبل هجرتك.

في شارع المحطة الفرنسي، كان يقام كل ثلاثاء سوق لمنتجات الريف من دواجن وألبان وأجبان وبيض وخضروات وفاكهة، والباعة -غالبيتهم من النسوة- يأتون إليه بالقطار الفرنسي غالبًا.

لا أعرف يا طاهر لماذا كان اسمها المحطة الفرنسي، مع أن قاطراتها التي عرفتها في طفولتي كانت مستوردة من رومانيا في ذروة استغراقها في المد الشيوعي، الذي سرعان ما سيتوقف، بالذات في شرق أوروبا، بحلول التسعينيات. كما أن نشأتها كانت على يد شركة بلجيكية، يقال إن أرض المحطة ومبانيها لا تزال مملوكة لها، ولذلك لا تزال محاطة بسور، أقيم خارجه من ناحية عزبة عقل مسجدًا بتمويل من ثري خليجي يدعى الكعكي.

كان سوق الثلاثاء يشغل حيزًا يمتد لعشرات الأمتار في مواجهة باب المحطة الفرنسي وسورها، الذي كان في معظمه من السلك الشائك الممتد جانبي الباب، الذي يفضي إلى شباك تذاكر بجانبه بوابة، يقف عليها موظف يسمح لحاملي تذاكر السفر بالمرور ليمشوا بعدها مسافة مائة متر تقريبًا،

متخطين؛ على اليمين؛ ورشة صيانة القاطرة النحيفة والعربات التي تجرها، وتتصدرها زاوية كان الناس، وخصوصاً عمال المحطة، يقصدونها للصلاة.

لدى وصولهم إلى القطار يتوزع المسافرون، بين خطين، وجهتهما الشمال الشرقي، أحدهما ينتهي في المنزلة والآخر في طنّاح، مروراً بعشرات القرى التابعة لمحافظة الدقهلية.

لماذا سميت المحافظة بهذا الاسم، ولم يطلق عليها المنصورة؟ لا أعرف.

المهم أن للمحطة باباً آخر قريباً من مستقر القطار، يجد الخارج منه شاباً آخر للتذاكر، وموقف سيارات شربين الملاصق للسور الشرقي لمحطة سكك حديد المنصورة الميري، وإلى اليمين مقهى كبير أمامه فرشاة لبيع الصحف والكتب، ويلتصق بجدار المقهى ملحج ضخم للقطن في بداية شارع المديرية، الذي لا يبعد عن هذه النقطة سوى بضعة أمتار عن مدرسة "العائلة المقدسة"، و"المدرسة الإسلامية"، وينتهي بمحطة أتوبيسات مخصصة للسفر، من المنصورة إلى مدن أخرى.

10

وقفتُ قريباً من شباك شقة مستر ولیم، مدرس اللغة الإنجليزية بمدرسة الملك الكامل الثانوية، وجارنا في شارع شمس الدين، لأستمع إلى الراديو.. سمعت صوت السادات للمرة الأولى في حياتي. كان القرآن يتلى، لا أذكر بصوت من. كنت على بعد خطوة من دخول المدرسة الابتدائية.

كان الناس يستشعرون أن هناك حدثاً جليلاً. ثم تحدّث المذيعُ بصوت غارق في الحزن عن بيان سيلقيه نائب رئيس الجمهورية بعد قليل.. تحدث النائب في ذلك البيان بأداء متقن عن غياب "رجل من أشجع الرجال".

في محطة المترو، فيما كانت سيارتي لا تزال عند إبراهيم السمكري، استوقفني إعلان: "وأنت في السادات بيع واشتري إلكترونيات". عندما يقترّب القطار منها، يسمع الركاب صوتاً يخبرهم بالعربية الفصحى أو لا ثم بالإنجليزية، أن هذه المحطة هي محطة السادات وأن الأبواب ستفتحُ جهة اليسار. أما محطة جمال عبد الناصر،

فلا أذكر أنني قصدتها، في تلك الأيام أو غيرها، إلا قليلاً. فعندما أغلقت محطة السادات خلال الثورة، كنت أنزل من المترو في محطة سعد زغلول التي تسبقها، وأتجه سيراً على الأقدام إلى جاردن سيتي، ماراً بكثير من الحواجز التي كان يشرف عليها الجيش.

11

(يوليو 2018)

جاء الطاهر يعقوب..

عاد.

هكذا رأيتُه - في الحلم - ومعه حقيبتنا سفر.

كنتُ في انتظاره في مكان مرتفع.

تعانقنا، وساعدته في تمرير الحقيبتين من أنبوب ضخم، تُفَتِّحُ نهايته على هاوية، وإذا بإحدهما تنزلق.

رأيت ذلك ومعني الطاهر نفسه، وكأن شاشةً ضخمةً تعرضه، فأصابنا هلعٌ ونحن نترقبُ انزلاق الحقيبة الثانية الذي بدا أمرًا حتميًا، فيما كان عقلٌ - في الحلم ذاته - ضجرًا، كعادته، وكأنما أراد أن أتوقف عن توقع أن يعود الطاهر يعقوب من جديد، إلى السودان حيث ولد، أو إلى مصر حيث أتمّ دراسته الجامعية، وعاش عشر سنوات سبقت هجرته.

في فضفضة نادرة عن أسرته في السودان كتب لي الطاهر: كان جدي لأبي مليونيرًا، حتى قبل أن يصاب بنكسة مالية وأخرى مثل مصادرة النميري ما تبقى من أملاكه على طريقة الاشتراكية السائدة وقتها. وحدث أنه لم يغادر مدينته الصغيرة قرب الخرطوم. وكان أول من بنى بيتًا هناك من الطوب الأحمر والإسمنت. الناس لقبوه بالنبيل. يبدو أنهم فعلوا ذلك تجاوبًا مع سلوكه العام وقتها؛ فمثلًا كان لا يحمل نقودًا في جيبه. وهكذا لم أرث شخصيًا على ما يبدو سوى مثل تلك الذكريات التي لا تغني ولا تسمن من جوع. مع تعاقب الزمن وتباعد أيام العز، بدت تلك الذكرى مثلًا تاريخًا أكثر منه واقعيًا.. عمومًا جدي هذا الذي منحه الناس رتبة نبيل، على طريقة العصور الوسطى في أوروبا، توفي فقيرًا أوائل التسعينيات".

في أوائل التسعينيات، تعرفتُ إلى الطاهر يعقوب، حين دلف ذات يوم إلى مكتب "عرب اليوم" في جاردن سيتي، وفي يده مقال يريد نشره.. من وقتها صرنا صديقين بالمعنى الروحي، فكنا قلما نلتقي خارج مكتب "عرب اليوم".. هو كان قليل الكلام، وأنا أيضًا كنت كذلك ولم أزل.

من ضمن الفضفضة الفيسبوكية ذاتها، كتب لي الطاهر عندما سألته عن ظروف اختياره الحضور إلى مصر للدراسة، مع أنه كان يمكن أن يتم مرحلة تعليمه الجامعي في السودان: "في سير كثير من أعلام السودانيين كنتَ تجد عبارة: "هاجر إلى مصر طلبًا للعلم"، أو تخرج في "دار العلوم". أضف إلى ذلك تيارات الكتب والاتجاهات الفكرية، التي لم تنقطع عن السودان منذ رواق السنارية حيث يحج الناس إلى الأزهر طلبًا للعلم مرورًا برفاعة رافع الطهطاوي وقاسم أمين والمنفلوطي وطه حسين والعقاد ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وشوقي وصلاح عبد الصبور ودنقل وعفيفي مطر وزكي نجيب محمود وشوقي ضيف وغيرهم مثل نوال السعداوي، والدراما والأفلام المصرية، وكل ما قد يرمز إلى مجالات الحياة في تعددها وتنوعها. على ضوء هذه الخلفية، ولدت رغبتي ونمت في

الالتحاق بدار العلوم، أو بأحد أقسام اللغة العربية الملحقة بكليات الآداب، وهو ما لم يتم لأن هناك من قدم لي نصحاً بدا لي معقولاً وقتها لتغيير المسار الأكاديمي، وقد كان".

هل سبق أن سألته عن ذلك قبل أن يهاجر؟

ربما يكون ذلك قد حدث.

وربما لم يحدث.

يقيناً: لا أتذكر.

أو على نحو أكثر دقة: يحتاج التذكر بذل جهد.

وحتى ذلك لم تكن نتيجته مضمونة.

(17 يناير 2018)

كلمني أخي ماهر بعد ظهر اليوم، ليخبرني أن دعاء أحتُجزت في مستشفى التأمين الصحي؛ لأنها ستخضع غدًا لجراحة لاستئصال المرارة.

تعجبتُ، ثم صرفتُ تعجبي بسرعة ليحل الأسى محله من جديد، فيما طيف عقل يمر أمامي، وهو على هيئته نفسها التي عرفتها في طفولتي.

قال إنها أخفت الأمر إلا على ابنا باهر، وشقيقتها داليا. والأخيرة أخفته إلى أن أصرَّ ماهر أن يعرف سبب عدولها عن السفر معه إلى الإسكندرية، وهو أمرٌ كان يفترض أن يتم بعد أسبوع من الآن، وسبب قولها إنها ستضطر الليلة للمبيت خارج البيت.

داليا قالت إن دعاء ستخضع لجراحة، ويجب أن ترافقها في المستشفى ثم في بيتها خلال النفاهة.

أنا عندما قرر الطبيب حاجتي للإقامة في مصحة الكوثر لتدهور حالتي النفسية، كلمتها، وأخبرتها، وكان ذلك آخر اتصال أجريه؛ لأنهم أغلقوا الهاتف وأخذوه مني ليسلموه لها ومعه بقية متعلقاتي، بمجرد أن تصل إلى المصحة.

وكنت لا أزال طالبًا في كلية الإعلام، لمَّا خضعت دعاء لجراحة لاستئصال اللوزتين، وكانت عمتي (والدتها) معها في مستشفى القصر العيني، عندما تقرّر خروجها، فاستدعيْتُ سيارة أجرة واصطحبتهما إلى البيت في بولاق الدكرور.

أشعر أن الأمر هذه المرة أخطر من استئصال المرارة، يا دعاء، ولسوف يتأكد توجسي وأنا أعودك لاحقاً في قسم جراحة الأورام في مستشفى التأمين الصحي.

لن أتكلم أبداً معك أو مع أي أحد عن ورمٍ خبيث، جرى استئصاله من صدرك يا دعاء.

من الذي لم يعرف ما حدث؟

وكيف كان في بالك أن تكتمك على الأمر سيحول دون أن يعرفه المعنيون، إخوتك وأبناؤك على الأقل؟

لكنك ستفرضين على الجميع ألا يتحدثوا في أمر ذلك السرطان الجديد في العائلة، على الأقل في حضورك.

(17 يناير 2018)

رأيتُ سلمى السكري أمس.

بدت لي أجمل مما كانت عليه عندما زارتي في المصحة، قبل حوالي سنتين (لست متأكدًا من أن ذلك كان منذ سنتين).

التقت عينانا.

لم ترتب لذلك.. لكنني كنتُ أتوقع أن أراها عند مدخل ذلك المبنى. عند المدخل على الأرجح، أو ربما في أي مكان في الداخل.. وربما في أحد الشوارع المحيطة؛ عاجلاً أو آجلاً.

توقعتُ أن يحدث ذلك منذ أن علمت أنها عادت إلى مصر، من دبي حيث كانت تعمل لثلاث سنوات تخللتها إجازات عدة. في بداية سفرها كنا لا نزال زوجين، ثم بعد انقضاء العام الأول، وقع الطلاق، على ما أذكر.

لم أفكر في أن أتحاشى ذلك اللقاء، يا طاهر، ولم أسع إليه.

كنتُ أعرف أن الصدفة ستصنعه حتمًا. تمامًا كما حدث عندما توقعت أن أجدك يا طاهر مجددًا، بعد اختفائك المفاجئ عندما كنت تعيش في ألمانيا. ملابسك ذلك الاختفاء ثم انتقالك إلى أستراليا ستحكيها لي يومًا أيها الكتوم.

المهم، رأيتُ في عينيها إحساسها بالمفاجأة، وشعرتُ بأنها فكرت لجزء من الثانية في أن تتجاهلني. لكنها سرعان ما ابتسمت.. تلك الابتسامة الرائعة التي لطالما أسررتني، بما أنها عنوان صريح لوعده بالبهجة، لا يمكن الشك ولو للحظة في صدقه.

ابتسامة عينين أكثر منها ابتسامة شفيتين.

مددتُ يدي ومدتُ يدها.. تبادلنا بضع كلمات، ثم سار كل منا في اتجاهه، وكلانا يعلم أننا سنلتقي مجددًا هنا في مبنى وكالة المحروسة للأبناء، أو في محيطه. سنلتقي، فأنا بالتأكيد أشد احتياجًا منها لأن نلتقي.

هل وقع طلاقنا في أواخر 2016؟ ربما فالفيديوك ذكرني قبل أسبوعين من الآن بالبوست التالي: "علي الصعيد الشخصي، كانت 2016 طيبة إجمالاً، وجاء أهم ما منحتني إياه في أسبوعها الأخير؛

متمثلاً في إنعاش محبتي للحياة، وكأني مولود للتو. سأنسى ذلك كله، سأنسى تمامًا، كمّن أشفقّ عليه الله فنزّع منه الذاكرة".

ومن أسبوعين أيضًا وجدت أن دعاء تركت لي ورقة صغيرة على الطاولة، التي تعلوها شاشة التلفزيون في الصالة: "سيب عشرين جنيه للمكوجي و30 جنيه للزبّال".

وجدتها وأنا أستعد للذهاب إلى مكتب "عرب اليوم".

هي دائمًا تمارس ذلك الخصام، الذي سيبدو لك يا طاهر للوهلة الأولى أنها مضطرة إليه، سواء كان معي أو مع غيري أيضًا للأمانة. تعتبره جزاءً عادلاً على خطأ جسيم ارتكبه من تخاصمه. في حالتي: هل هو مثلاً زواجي من سلمى؟ لكن هذا ليس دقيقاً، بما أن الأمر في تكرار دائم منذ السنة الأولى لزواجنا أنا ودعاء، ثم إنها يمكن جداً أن تتنازل وتكلمني مباشرة، في حال أحسّت أنه لا مفر من ذلك.

حدث هذا مثلاً؛ طوال ثلاثة أشهر سبقت توجهنا معاً لأداء فريضة الحج، بعد أن طلقت سلمى.. هي حاولت لثلاث سنوات متتالية الحصول على تأشيرة للحج وفشلت، سواء عبر شركات السياحة أو قرعة وزارة الداخلية؛ فسألنتي بتودد؛ بات مألوفاً لي في موقف نادر كهذا، إذا كنت أستطيع مساعدتها.

قلت: نعم، يمكنني أن أضع اسمينا في خطاب، ترسله الجريدة إلى السفير السعودي ليمنحنا تأشيرتين، واحدة لي والأخرى لها باعتبارها زوجتي. قلتُ حتى أنني لن أسافر معها توفيراً للنفقات بما أنني سبق أن أدت الفريضة. هي قالت إنها تستبعد أن أبخل عليها بمصاحبتها في تلك الرحلة المقدسة، وأنا قلتُ في نفسي: سأهبها لأبي، بما أن المنية قد وافته قبل أن يحج.

15

يبدو أن هذا السفر بالذات هو ما كنت أنتظره.

السفر لتشييع أمي الثانية.

وبالمرة أمكث في عزبة عقل أسبوعاً أو أكثر، كما نصحني الدكتور عادل رأفت، مؤخراً خلال اتصال هاتفي.. هو قال إن ذلك سينعش خيالي بما يخفف من وطأة التذكر، ويحث على الكتابة، ومن ثمّ ربما يضع حدّاً لوقوف المتكرر على حافة إقامة دائمة في الكوثر.

عادل قال أيضاً معلّقاً على جفاء فخري ماتوسيان المتزايد معي، منذ تواتر الكلام عن قرب توقف "عرب اليوم": "خذ الأمر ببساطة. تعامل معه على الأقل باعتباره سلوكاً مبرراً".

تضايقت لحظتها، يا طاهر، ولكنني بدأت أفكر في منطقية ذلك الطرح.

بعد ذلك بثلاثة أيام، حذرني فوزي العطار من مغبة قيامي بوصف صاحبه بما هو فيه.. أنا قلت للعطار إن ما فعله فخري ليس أقل من ندالة.

فوزي العطار، لا يزال يكرر السعي من أجل الحصول على جائزة التفوق في الآداب، رغم أن عمره تخطى الثمانين عامًا.

كثيرًا ما كنت أسمعه يقول لفخري، خلال جلستنا على مقهى "المشربية": "أنت ناقد المفضل. أنت أهم ناقد بصراحة!!"

قال لي العطار عبر الهاتف: "يا حسين كده حجتك باظت، وربنا يوم القيامة هياخد من حسناتك ويديله وياخد من سيئاته ويحط عليك".

انتهت المكالمة وسرحتُ في ما قاله العطار لي من قبل من كلام، بدا لي وقتها أنه يخصه وحده، ولا علاقة مباشرة له بفخري ماتوسيان: "أصل أنا يا أستاذ حسين متعود أول ما أخرج من الجامع بعد صلاة الجمعة، أولع سيجارة، فمرة عملت كده ولاقيت واحد جاري ببسألني: بتحشش؟ فاتحرجت أقوله آه، خصوصًا أن معرفتنا مش وطيدة، فقالي طيب خد دي جرّبها، وطلعت بصراحة حاجة أصلي. دلوقتي كله مغشوش وعشان كده تلاقى العيال بتوع اليومين دول حالتهم زي الزفت. الحشيش البيور مفيد جدًا للتخييل وللجنس يا أستاذ حسين".

وفي غضون ذلك، أخبرني عادل رأفت أن فخري قال له عندما سأله عن سبب خصامنا إنني أحيانًا أعلق على بوستاته بما يضايقه ويحرجه ويهز من مكانته وسط أنصاره، ثم اقترح أن يلتقي ثلاثتنا لتصفية ذلك الخلاف.

قلت له: "هو إللي اقترح إننا نتقابل؟".

صمت عادل لبرهة. بدت عليه أمارات الحيرة. ثم أجاب: "لا". فقلت له: "سامحني، نفسيًا مش قادر أقبل اقتراحك".

قال: "براحتك. أنا بس حبيت أكون حمامة سلام. وعلى العموم أنا صلتني بيك أوثق من صلتني بفخري. أنت أصلًا إللي عرفنتني عليه".

أظن أنها كانت جزءاً من ريف بين ضفتي "البحر الصغير"، الذي لم أره وقت أن كان "بحراً"، ولكنني رأيته حين بات واحداً من أوسع الشوارع المرصوفة في المنصورة، من دون أن يفقد اسمه، على الأقل لدى الناس.. أظن أن اسمه الرسمي هو شارع الجيش.

النهر نسميه بحرًا.. والبحر الصغير، أو بحر أشمون، هو جزء من النيل، هو جزء من فرع دمياط.

الحقول التي لم أرها يا طاهر تحولت بالتأكيد إلى أحياء سكنية، يبدأ معظمها بمفردة عزبة؛ مما يؤكد ماضيها الريفي. عزبة عبدالرازق، عزبة الشال، عزبة الشناوي.. هذه أسماء لأشخاص حقيقيين على الأرجح، كانوا يمتلكون مئات الأفدنة، ربما ورثوها من أسلاف كانوا يسكنون جزيرة الورد، قبل أن يصبح اسمها المنصورة؛ تيمناً بالنصر على حملة صليبية، قادها ملك فرنسا لويس التاسع وانتهت بأسره وإيداعه دار ابن لقمان قبل أن تقتديه زوجته بمبلغ كبير دفع جزء منه مقدماً، على أن يستكمل لاحقاً، ولكنه لم يستكمل أبداً.

عبدالرازق، مثلاً، الذي تجاور العزبة التي تحمل اسمه عزبة عقل، ربما يكون هو نفسه عبدالعزيز عبد الرازق، الذي قرأت أنه خصص قطعة أرض، مساحتها عشرون فداناً، لإنشاء "النادي الملكي" عام 1932. وربما يكون المقصود شخصاً آخر.

"النادي الملكي" هو الاسم الأول لنادي المنصورة الرياضي، حتى عام 1949، عندما قرر وزير المعارف الدكتور طه حسين نزع ملكية الأرض التي يشغلها لتقام عليها كلية الطب. وانتقل النادي إلى شارع بورسعيد ليعرف باسم "نادي البادية" حتى قامت "ثورة" 1952، فأصبح يعرف باسم "نادي الشعب".

أوقات طويلة تمر، يا طاهر دون أن تبادل دعاء بالكلام معي، أحياناً تقول: "السلام عليكم"، بمجرد أن تفتح باب الشقة، فأرد، مع إدراكي أنها اعتادت السلام على كائنات غيبية، تؤمن بأنها تشاركنا المكان نفسه، ولكنني أفاجأ بين الحين والآخر، بكلام مقتضب توجهه لي مباشرة، مثلما فعلت أمس؛ حين أيقظتني من النوم لتقول: "منتساش تسيب 1500 جنيه للكهربا والغاز".

وبالأمس أخبرتني أختي زينب بما مزق أحشائي يا طاهر.. قالت إن أختنا أمل زارتها الأسبوع الماضي، وطلبت منها أن ترافقها إلى كنيسة في عين شمس، وهناك أشعلت شمعة أمام مجسم للعدراء، ثم مسحت عليه بكفها وهي مغمضة العينين.. تمتمت بكلمات، ربما طلبت لنفسها شيئاً. قالت زينب إنها لم تتبين أي كلمة من تلك التمتمة. وما إن خرجنا إلى الشارع، حتى سألتها عن معنى ما حدث، فقالت أمل إنها مأمورة من جني مسيحي، يسكن جسدها.

بسم الله الرحمن الرحيم

أخي وصديقي وتوعم روحي

أرجو أن تصلك رسالتي وأنت والجميع في أتم صحة وعافية.

أخي ماهر: أحب أن أبلغك أنني بخير والحمد لله، ويفترض أن أعود إلى القاهرة في غضون ثلاثة أشهر على الأكثر لتجديد التأشيرة.

للعلم؛ عندما سافرتُ في منتصف شهر مارس الماضي، كنت قد تركت لدعاء مبلغ خمسة آلاف جنيه كمصروف للبيت، اتفقنا على أنه يكفي لعشرة أشهر، بالإضافة إلى 600 جنيه تعطيها لوالدتنا بمعدل 100 جنيه أول كل شهر، و120 جنيهًا للبواب، بمعدل 20 جنيهًا كل شهر، بالإضافة إلى قيمة الدروس الخصوصية كاملة حتى نهاية العام الدراسي.

وقد شاء القدر كما تعلم، أن أعود إلى القاهرة في 22 أبريل للحصول على تأشيرة، واستغرق ذلك كما تعلم أيضًا نحو ثلاثة أشهر، توقفت خلالها دعاء عن دفع راتب البواب ومصروف الوالدة وقمت أنا بذلك بنفسي، بالإضافة إلى تحملي جانبًا من مصروف البيت.

المهم: عند سفري الأخير في 2005-7-9 تركت لدعاء مبلغ 1400 جنيه، لتدفع منه القسط الأول من مصروفات مدرسة حنان، وهو لا يتجاوز 900 جنيه، وأبلغتها أن صبري حسن (زميلي في مكتب عرب اليوم بالقاهرة) سيسلمها مبلغ 1400 جنيه قبل منتصف الشهر الجاري.

لن أطيل عليك.. منذ عدة أيام اتصلتُ بدعاء، وفاجأتني بقولها: الفلوس قربت تخلص، ياريت تبعتنا فلوس".

أنا هنا مرغم، ولكن "عسى أن تكرر هو شيئاً وهو خير لكم".

مرفق مبلغ ألف ريال، أي ما قيمته أكثر من 1500 جنيه قليلاً.

أرجو أن توالي دفع مصروف والدتنا (100 جنيه شهرياً) وادفع لأختي زينب مثلها وكذلك لأختي أمل، وأيضاً لأخي حسان، واحتفظ بالباقي؛ من أجل الاحتياجات الطارئة لحنان وحنين وهاجر، وأهمهم، على اعتبار أننا على أبواب مدارس وقد يحتاجون إلى ملابس وغيره.

وإلى أن نلتقي بإذن الله، لك ولزوجتك وأولادك ميادة وعلاء الدين وندى، خالص محبتي.

حسين عبد الحميد

الرياض/ في 2005-8-13

كنت قد سألت أخي ماهر عما إذا كان قد وجد أية أوراق تخصني، بين ما كانت أمي تحتفظ به بعد أن تولى إخلاء سكننا في عزبة عقل، بعد مرور نحو عامين على وفاة أمنا، فأجابني بالنفي وأعطاني هذا الخطاب، الذي كنت قد أرسلته إليه أثناء انتدابي للعمل في مكتب "عرب اليوم" بالرياض.

سألت أمل وزينب، فأجابتا بأنهما لم يعثرا على أي أوراق، مع أنني كنت أحتفظ بمراسلاتي مع سهام، والتي امتدت إلى ما بعد التحاقني بالجامعة بقليل.. سهام وقتها قالت إنها لن تستطيع انتظاري لحين انتهاء دراستي وبعدها الخدمة العسكرية، ومن ثم تزوجت من شخص لا أعرفه، وأنجبت منه ولداً وبناتاً.. التزمت بما كنا قد اتفقنا عليه وهو أن ننجب بنتاً نسميها ياسمين وولداً نسميه عمرو.. التزمت بذلك مع زوج آخر، لطالما سمعتُ أنها تعاني من سوء معاملته لها. كان عمرو وياسمين يا طاهر لا يزالان في مرحلة الدراسة الثانوية، عندما تزلت أمهما التي تباعد اتصالي بها مع الوقت إلى أن انقطع تماماً، وكأننا لم ننشأ معاً وتواعدنا في صبانا المبكر على الزواج.

18

قرأت على صفحة الشاعر والروائي إمام الشحات على الفيسبوك أن رولان بارت حكم عليه بالموت! هو قال أيضاً إنه يؤمن بأن بارت لا ينطق إلا عن يقين.

أنا ضحكتُ ولم أعلق، يا طاهر ثم انشغلتُ بخبر فوز كاتبة فلسطينية بجائزة أدبية مرموقة على المستوى العربي.

لم تولد الكاتبة في فلسطين، ووالدها جرى تهجيرها منها، وهو طفل في السابعة من عمره. لكن ظلت فلسطين في وجدان الأب والابنة هي الوطن، وسواها مهما أعطى ليس إلا منفى، على حد ما جاء في كلمتها يا صديقي لدى تسلمها الجائزة.

قبل ذلك الموعد ببضعة أيام توقفتُ يا طاهر عند "الحلم 204" في كتاب "أحلام فترة النقاهاة"، وشعرتُ أنه يوجز رواية "حضرة المحترم" في أقل من ثلاثة أسطر:

"رأيتُني أتجاوز الأربعين وأداعب وردة بيضاء وهي تستجيب لعواطف بل وتشجعني، ولكنني لفارق السن أتردد وأتمادى في التردد حتى تهجرني وحيداً مع الزمن".

19

"خلصتم أكل؟" سألت، وأنا فهمتُ فوراً يا طاهر أنها ترغب في أن تظفر بما تبقى في الطبقين.. عجوز يبنئ مظهرها ببؤس الحال. كانت القلط تحيط بالطولة أمام محل فواكه اللحوم الشهير، قرب الناصرية. قلت: "أه؛ خلصنا".

كان عبد الرحيم الجرجاوي قد غادر الطولة ليغسل يديه ويدفع الحساب.. وكنتُ أنا أفكرُ في أنه ولا بد سيدفع ليس أقل من مائة جنيه عني وعنه. هو الذي أصرَّ على أن يدعوني على العشاء في هذا المحل بالذات، بما أنه استلم اليوم مكافأة نشر كتابه الأول، ووصلته في الوقت نفسه مكافأة نعتيرها "سخية" بمقياس ما آلت إليه أحوالنا، عن مقال نشرته له مجلة خليجية.

اتضح لنا أن الطبقين متوسطي الحجم، اللذين طلبنا أن يأتي بهما النادل ومعهما السَّلطات والطحينة، يكفيان أربعة أشخاص وليس شخصين وحسب. فكرتُ، فيما كنا منهمكين في الأكل، أنه يمكن أن أطلب من النادل أن يلف ما تبقى ليأخذه أي منا إلى البيت.. هذا أفضل طبعًا من أن يلقى به في سلة بقايا الطعام.

قالت: "طيب بسرعة قبل الجرسون ما ياخذ باله ويز عقلي". قلت لنفسي: نعم، السرعة مطلوبة، فلربما ينتبه النادل ويهم برفع الطبقين بما تبقى فيهما. جمعتُ قطع اللحم و"الفِشة" ووزعتها على رغيفين.

قالت بصوت خفيض: "حُط الفلفل عشان يفتح نَفْسهم". فعلتُ، وناولتها، فأخذتهما، وبسرعة، كبشت حفنة ملح ووزعتها على الرغيفين، وهي تحرق برعب في الاتجاهات كافة.

في اللحظة الأخيرة ركّزت نظرها صوبَ النادل الذي كان مشغولاً مع رواد طاوله، تواجه لافتة تتأشد الرئيس ليقبل الترشح لفترة رئاسية جديدة، وفي ذيلها التوقيع التالي: "مصطفى السمين بالأصالة عن أهل الدائرة".

أنت لا تعرف الجرجاوي يا طاهر.. هو في عمر ابنتي حنان. حاصل على ماجستير في الآداب من جامعة القاهرة، ويستعد لتحضير الدكتوراه، ويواجه تعنتاً غريباً من جانب أعضاء في مجلس القسم. سعى طويلاً من أجل أن يجد وظيفة براتب ثابت، ولكنه لم يعثر عليها مع كثرة الوعود من هنا ومن هناك، ففتحتُ له باب المساهمة بمقالات نقدية وحوارات مع نقاد وأدباء في "عرب اليوم". حدث ذلك قبل التعثر المالي غير المفهوم للجريدة بأشهر قليلة، وبمرور الوقت توطدت صداقتنا، رغم فارق العمر والخبرة، وتواصلت مناكفاتنا؛ خصوصاً على الفيسبوك؛ بحكم أنه أهلاوي متعصب وأنا زملكاوي مسكين.. نختلف أيضاً في أمور عامة كثيرة، وتضايقني أحياناً حدثه في الغضب مما آل إليه حال البلد.. ولكنني عادة ألتمس له العذر بسبب انسداد الأفق تقريباً أمام أحلام يتعجل تحقيقها، وأخشى في الوقت ذاته من أن يتحول يوماً إلى فخري ماتوسيان جديد.

المنزل رقم 12 شارع شمس الدين، بعزبة عقل، يتألف من طابقين، يضم كل منهما شقتين: في الأول الشقة التي يواجه بابها المدخل، تسكن صاحبة المنزل أم محمد سميرة. في طفولتي رأيت زوجها ووالدها، كان الثلاثة يقيمون في الشقة ذاتها، والتي يقع في منورها فرن لإعداد الخبز، قبل أن يستقل شراء الخبز من المخابز، ومن ثمّ يتحول المنور إلى ساحة لتربية الطيور الداجنة.

سميرة كانت في نحو الأربعين من عمرها، وأنا طفل يستعد لدخول المدرسة الابتدائية، وهي ترملت في تلك الأثناء على الأرجح.

كان والدها قد سبق زوجها إلى الموت.. هي لم تتجب، ومع ذلك كان اسمها المتداول هو أم محمد، على اسم شقيقها الأكبر. كانت بدينة ولها شعر حريري أسود، وبعد سنوات من ترملها تزوجت من جديد، كان يكبرها بسنوات قليلة، أو ربما كان يماثلها في العمر.

طلبت مني غير مرة توصيل الغداء إلى زوجها الجديد في محل لقطع غيار السيارات في عزبة الشال. كانت آنذاك تضع الأحمر على شفيتها وتعنتني بمظهرها المنزلي، ومع ذلك سرعان ما وقّع عليها الطلاق، لتعود إلى وحدتها، التي كانت تبدها على ما يبدو بالصعود إلى سطح المنزل عصر كل يوم لتجالس أمي وجارات أخريات، فيشاكسها أبي ويذكرها بأنها خدعته، حين طلبت منه أن يترك الشقة التي كنا نسكنها في الطابق الأول بعد الأراضي، ولها بلكونة تطل على شارع سيف الدين، ليبنى حجرة فوق السطح ونسكن فيها، على أن تبني هي حجرة أخرى إلى جوارها مع حمام، وتصبح شقة تخصنا وحدنا.

حدث ذلك بالفعل، ولكن سرعان ما بنت سميرة مزيداً من الحجرات فوق السطوح. وبالتالي لم نتمكن من أن يكون السطوح لنا وحدنا، إذ أصبح لنا جيران، بينهم أسرة سهام.. ستمر سنوات وسنوات ليصبح السطوح لأمي وحدها؛ ومن بعد وفاتها لم يطأه أي ساكن، فتحول إلى مجموعة عشش لتربية الدواجن، بعد أن رفض المالك الذي خلف أم محمد سميرة أن يستقبل المكان سكاناً آخرين، على أمل أن يتمكن يوماً من إخلاء البيت كله، حتى يتمكن من هدمه ويقم مكانه برجاً سكنياً، متكناً على أموال ادخرها من عمله لسنوات طويلة في السعودية.

21

قرأتُ حالاً يا طاهر ما يلي: "ولكن الجنون شيء آخر غير كونه بؤرة للشر والفساد، ولكل العيوب وكل الاعتداءات على الأخلاق. فالأمر لا يتعلق، في تجربة الكلاسيكية مع الجنون وموقفها المعادي منه، بقواعد أخلاقية فقط، بل يتعلق بوعي أخلاقي. فهذا الوعي هو الذي يسهر على الجنون، لا الحساسية المتشككة". وعلي فكرة

يا صديقي، أنا كنت قد قابلت سميرة الكردي، بناء على اتفاق مسبق في كافتريا الهناجر. تذكر بالتأكيد أن المرة الأولى التي أراها فيها، كانت تجلس معك على مقهى "الحرية" في باب اللوق.

تناولنا في كافتريا الهناجر مشروبين.. لا أذكر ماذا كانا على وجه التحديد.. كان مساء خريفياً. لا أذكر العام الذي جرى خلاله هذا اللقاء.. ربما كان عام 2002. بلغني في شكل غير مباشر أنها لا تمنع في أن ننام معاً.. هي ترددت على مكتب "عرب اليوم" لنشر مقالات ونصوص إبداعية. بعد مرور بضعة أعوام على أول لقاء لنا في مكتب "عرب اليوم"، قالت: "إيه رأيك تيجي تشوف الشقة اللي أنا عايشة فيها؟" قلت: "ماشي". اتجهنا إلى محطة الأوبرا، وحملنا المترو إلى رمسيس، ومن هناك ركبنا الميكروباص المتجه إلى مدينة 6 أكتوبر.

كانت دعاء عند أمها، وحين عادت إلى البيت في اليوم التالي، ساورتها الهواجس، وواجهتني بمجرد عودتي من الشغل بأنها لاحظت أن سريرنا مرتب كما تركته، وهذا معناه أنني لم أنم فيه الليلة الماضية. قلتُ لها: "سهرت عند واحد صاحبي، والوقت تأخر فتمت عنده".

لم تقل إنها لا تصدقني، لكنني لم أشك للحظة في أنها كانت تدرك أنني أكذب.. وعموماً أنا لم أكررها كما سبق أن أوضحت لك يا طاهر. سميرة الكردي انقطعت أخبارها تماماً في محيط وسط البلد

بعدها ظلت لسنوات وجهًا معروفًا بين وجوه متسكعيه.

على الماسنجر، وصلتني رسالة من الطاهر بدت استكمالاً لفضضة، كنتُ قد بدأتها أنا بسؤالِي عن سبب عدم عودته إلى السودان بعدما انتهى من دراسته الجامعية في مصر: "كان هنالك ولا يزال نظام راديكالي ذو قناع ديني ووجه موالٍ لأمريكا. وإذا كنت تعيش في الخرطوم وقتها، وأنت غير محسوب لنظام القمع الشمولي فمن الصعوبة بمكان أن تظل على قيد الحياة.

في مصر كان هناك ما يلبي رغبة الكائن الكاتب في داخلي.. إلا أن وجودي برمته كان يعتمد على مصادر غير آمنة للعيش.

في كندا، ثم ألمانيا، كما في أستراليا، من حيث نظام العمل وعلاقات الإنتاج القائمة، فبدا الأمر في كثير من الأحيان أشبه بسجن العبودية الحديثة، حيث على العبد -لا السيد المتمثل في المؤسسات المالية الكبرى - أن يدبر قيده وطعامه ومعسكر اعتقاله بنفسه. نظام السيطرة على البشر أضحى أكثر خبثًا. كنت ولا أزال أحتمي بالكتابة كوطن".

بعدها قرأت ما كتبه الطاهر وحفظته، على كومبيوتر الشغل في مكتب "عرب اليوم"، دخل خالد الملواني معي في محادثة على الماسنجر: "يا صديقي العزيز أنفدنا.. ظروف في صعوبة. ما تكلم عادل السيوفي - يقصد مدير مكتب "عرب اليوم" - يشوف لي أي حاجة عندك.. ممكن أساعد في الديسك. أنت عارف شغل الأمن.. خلص (يقصد عمله معنا لسنوات، قبل سفره إلى الكويت في تغطية حوادث الإرهاب).

أنا: "يا صديقي... "عرب اليوم" نفسها مهددة بالتوقف. لم تعد تطبع في أي مكان. الطبعة الدولية توقفت فعلاً. لم يعد هناك سوى الطبعة الخليجية الإلكترونية. ومن سنتين مفيش فلوس للكتاب. ومن شهور طويلة مفيش مرتبات لينا".

خالد: "والعمل إيه يا صديقي العزيز؟".

أنا: "صاحب الشقة (مكتب الجريدة) هيطردنا منها، إذا مادفعناش الإيجار.. العمل عمل ربنا. كلنا في الهوا سوا".

خالد: "ربنا يتولانا جميعًا".

قضى خالد الملواني سنوات عدة في الكويت.. كان يعمل في جريدة هناك.. سعى إلى السفر، بعدما وجد أن ما يجنيه من عمله في جريدة حكومية مصرية وتعاونه مع "عرب اليوم" لم يعد يكفي، لمواجهة أعباء أسرته. في النهاية عاد مجددًا إلى مصر ليجد نفسه نائب رئيس تحرير جريدته الأصلية، فبات يكتب مقالات في مدح الرئيس، ويعيد نشر "خبطاته" الصحفية القديمة على صفحته على الفيسبوك، مصحوبة بإعلان نيته الترشح لمنصب نقيب الصحفيين، من دون أن يجد سببًا لمواجهة الغلاء المتفشي، بعد تبخر مدخراته، وفقدان الأمل في العمل مجددًا في "عرب اليوم".

بعد بضعة أيام على هذه المحادثة، كتب لي عبدالرحيم الجرجاوي أنه سيظل يكتب لـ "عرب اليوم"، إلى أن تتوقف تمامًا عن الصدور كما هو متوقع لدى كثيرين وعلى رأسهم فخري ماتوسيان الذي قاطعني في ظل تفاقم أزمتها.

كتب الجرجاوي أنه سيفعل ذلك، على أمل أن تعود "عرب اليوم" يومًا إلى سابق عهدها.. هو يستمد ذلك الأمل من تواصله الحميم مع وجدي حامد، أقدم موظفي المكتب وأوسعهم نشاطًا، حتى أنني أطلقت عليه "حارس عرب اليوم".

كان الجرجاوي يرد بذلك على ما كتبته أنا له عن أن مكتب القاهرة، ربما لن يكون له وجود في غضون أيام. مركز الجريدة الذي انتقل من لندن إلى دبي يلفظ أنفاسه الأخيرة، حقيقة لا مجازًا.. لا بد من معجزة ليستعيد عافيته، ونستعيد جميعًا عافيتنا.. لا بد من استئناف ضخ الأموال في شرايين الجريدة.

في تلك الأجواء، جاء يا طاهر بيان منظمة "مراسلون بلا حدود" ليؤكد فداحة الأوضاع التي بلغتها مهنتنا؛ إذ أكد البيان أنه منذ بداية 2018 حتى نهايتها تقريبًا، بلغ عدد الصحفيين الذين قتلوا في مختلف أنحاء العالم 80 صحفيًا، بينما يقبع 348 في السجون، إلى جانب 60 آخرين محتجزين كرهائن. وجاء فيه أيضًا أن السويد أفضل مكان للصحافة الحرة في العالم، ثم النرويج وهولندا على التوالي، فيما تأتي مصر بعد الصين كأكثر دولة تسجن الصحفيين.

طبعًا حكاية السجن هذه سخيفة جدًا. لكن فات التقرير يا طاهر تسليط الضوء على تزايد فقدان الصحفيين في بلادنا لمصادر رزقهم، في ظل توالي توقف صحف عديدة عن الصدور، وإغلاق مواقع صحف إلكترونية وفضائيات، كانت تستوعب مئات الصحفيين. هناك حالات إغلاق بقرارات من الهيئة، التي يقال إنها مستقلة والمكلفة بالارتقاء بالمهنة.. أما النقابة، فتستطيع أن تقول إنها تقف مكتوفة الأيدي أمام محنتنا.

22

كان أبي في مستشفى أحمد ماهر في القاهرة، يُعالج من تصلب الشرايين، وتقرّر أن يجري له الدكتور إبراهيم بدران (الذي أصبح وزيرًا للصحة في ما بعد) جراحة لبتر ساقه اليمنى، ولكنه هرب من المستشفى، وعاد إلى عزبة عقل متكئًا على عكاز.

عم حسن ماتوسيان؛ كان دائم السؤال عنّا في غياب أبي.. كان يعمل موزعًا لمنتجات الشركة الشرقية للدخان، كان يوزعها على تريسيكل هوائي، دراجة بثلاث عجلات تحمل صندوقًا يحوي كراتين السجائر: الكليوباترا والبلمونت والفلوريدا. كان يقيم في بيت من طابق واحد، مجاور للبيت الذي نسكن فيه في شارع شمس الدين، وكان مثل بيتنا يطل من جانبه الأيسر على شارع سيف الدين.. لم أعرف له إلا ولدًا واحدًا، هو فخري الذي كان في عمر العامين تقريبًا عندما التحقت أنا بكلية الإعلام في جامعة القاهرة.. لم أعد أراه إلا ليمامًا، كلما زرت بيت الأسرة، وكنت أسمع أنه

متفوق في الدراسة، حتى استوقفتني عم حسن: "فخري اتخرج ومصمم يروح مصر ويشغل هناك، ويعمل دراسات عليا، ماجستير ودكتوراه يعني.. الله يخليك تساعده، هو برضو زي أخوك".

اقتران لقب ماتوسيان بعم حسن، لا أعرف، له سببًا يا طاهر غير أنه - وهذا مجرد تخمين - كان يعمل في شركة ماتوسيان.

كان يكرر على مسامعي حتى آخر لحظة: "أنا صنيعُك" .. كان يردد أنه الأهم بين مُجالييه والسابقين واللاحقين، كان يقول عن نفسه: "أنا مفكر ونصوصي كلها مائزة؛ ولذلك تنشرها أعرق صحيفة في العالم العربي!"

23

أنا لم أخلص في الحب إلا قبل أن أبلغ الـ 18! بلغتُها في عام 1981، وبلغها باهر في 2018، وأظن أنه أيضًا لم يخلص بعدُ في حب بنتٍ محددة.

لم أتمكن من مواصلة حبي لامرأة واحدة، وكأنما لا توجد امرأة سواها تستحق أن أحبها بمنتهى الإخلاص وإلى الأبد.. من يدري، فربما تكون سلمى هي تلك المرأة.

سلمى لا تخفي رغبتها في أن نتزوج من جديد.. أنا أيضًا أرغب في ذلك، ولكنني أخشاه بقدر أعمق من خشيتي من الإقدام على زواجنا الأول.

لا شك أن حاجتي، بعد أن تخطيت الخامسة والخمسين من عمري، إلى المودة والسكن هي أكبر من أي وقت مضى. ومع ذلك أجد أن بلوغ تلك الحاجة ليس أمرًا مضمونًا، بما أن سلمى لم تنته بعد من أداء دور الأم والأب في رعاية أولادها الثلاثة. لن يتاح في الوقت الراهن أن نقيم معًا طوال الوقت؛ فليس مستساغًا أن يجمعنا بيت تقيم فيه مع ابنتيها وابنها. وأنا أيضًا لست مستعدًا للابتعاد عن باهر، وهو في ذروة مرافقته، التي لا تخلو من الرعونة الشديدة أحيانًا والتهرب دائمًا من تحمل المسؤولية.

لا أود تكرار الفشل.. لا أود الرضوخ مجددًا لضغوط، أعرف أنها ستقودني حتمًا إلى الكوثر.

ثم إن مدخراتي صفر: تلك حصيلة ثلاثين عامًا من العمل في الصحافة.. عمل متصل في مكانين؛ "عرب اليوم" ووكالة "مصر المحروسة". بالكاد حققت الستر. والآن يكاد الستر يذهب بلا رجعة، وأنا على أبواب التقاعد الذي سينزل بدخلي إلى أقل من ألفي جنيه شهريًا.

24

في عام 1972 ، أعلن السادات أن 99 % من أوراق حل مشكلة الشرق الأوسط في يد أمريكا. تحركت المخابرات الأمريكية على الفور وأرسلت رسالة واحدة عبر ثلاثة وسطاء: رومانيا وإيران والسعودية. الرسالة تحمل مطلبين لحل مشكلة سيناء: طرد الخبراء السوفييت، والإفراج عن الإخوان المسلمين والسماح لهم بالعمل في مصر. قام السادات بالإفراج عن الإخوان في مايو 1972، كما قام بالمهمة الثانية بعدها. في عام 1974 قام بتعيين محمد عثمان إسماعيل محافظاً لأسبوط، الذي تولى تسليح وتدريب فرق الموت الإسلامية، وأطلقها على المسيحيين وعلى الطلبة اليساريين في جامعة أسبوط.

تلك المعلومات يا طاهر هي من ضمن ما أفرج عنه من وثائق أمريكية، حسب ما أفاد مقال لمؤرخ مصري يحظى بقدر عالٍ من المصداقية.

نعم: أنا سمعتُ السادات، وهو يقول في غمار الجدل حول الإسلام السياسي: "لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة" .. وقتها لم يكن عندي ما يدفعني إلى تأمل مدى وجهة هذا الرأي.. الآن أجدها مقولة مضحكة، بصرف النظر عمّن يقول بها، في الشرق أو الغرب.

أجدها مضحكة أكثر؛ بما أن السادات نفسه يا طاهر كان ضدها على طوال الخط. تفكيري في هذه المسألة يا صديقي تصادف مع قراءتي لمقال آخر لمفكر مصري ، أظن أن عمره قد تخطى الثمانين عاماً، ومما جاء فيه: "... أما الرئيس السادات، فمنذ توليه السلطة، دخل في علاقة عضوية صريحة مع الإخوان المسلمين، ثم قال: "أنا الرئيس المؤمن"، ثم أردف قائلاً: "أنا فرعون مصر والديموقراطية لها أنياب". وهكذا تلاحمت الإسلامية مع الفرعونية، وعندما اغتاله أنصار الأصولية الإسلامية في 6 أكتوبر 1981 ، تصاعدت الإسلامية وبقيت الفرعونية على حالها مع مراعاة إيثار الإسلامية سرّاً من غير إعلان في زمن حسني مبارك، الذي أخفى هذا الإيثار بلفظ "المحظورة" في سياق لفظ هو على النقيض، وهو لفظ المحظوظة".

وجاء في المقال نفسه الذي ربما لن تجده على الإنترنت يا طاهر، ما يلي: "فعندما قرر مجلس الوزراء في 14 يناير 1954 حل جماعة الإخوان المسلمين، انضم زعماءها فوراً إلى تأييد اللواء محمد نجيب، وفي 28 مارس من العام نفسه قرر مجلس قيادة الثورة إعادة تشكيل الحكومة، مبعداً اللواء محمد نجيب عنها وعن مجلس قيادة الثورة. وبرغم إطلاق ثماني رصاصات من إرهابي، ينتمي إلى التنظيم السري للإخوان المسلمين، على جمال عبد الناصر أثناء مهرجان شعبي في الإسكندرية، فإن عبد الناصر كان ملتزماً بما قاله للمرشد العام حسن الهضيبي من أنه سيطلق مبادئ الإخوان المسلمين في مجال التعليم، وقد كان؛ إذ عين كمال الدين حسين أحد أقطاب الإخوان وزيراً للتعليم، ولم يفتن عبد الناصر إلى خطورة هذه المبادئ إلا في عام 1970 عندما عينني مستشاراً سرياً له في القصر الجمهوري لشؤون التعليم، قبل وفاته بستة أشهر!"

قبل زيارة السادات للمنصورة، أتذكر أنه قال بنفاد صبر: "اعلموا أن للديموقراطية أنياباً".

وفي تلك الأثناء ذاعت حكاية "عاشور".

امرأة في نحو الثلاثين من عمرها، طويلة وتميل إلى البدانة. فجأة كستها علامات البلاهة، وصار الشباب (من الذكور فحسب) ينادونها "عاشور"، فتقذفهم بما تطوله يداها وتكيل لهم السباب. قيل إنها حبلت من أبيها الكهل الضرير، وكانت ثمرة ذلك طفلاً جرى إيداعه في دار لرعاية الأيتام في طلخا، عقب أقل من أسبوع على ولادته في غرفة معتمة، بمساعدة نسوة من الجيران.. ظلت مع أبيها الذي كان يعيش وإياها في تلك الغرفة وينفقان من معاشه عن عمله فرائشاً في مكتب مؤسسة صحفية في المنصورة. أذكر أننا كنا نناديه بـ"عم أمين"، أما "عاشور"، فكانت قبل تلك الواقعة معروفة بـ"البت فريال".

لم أفهم مغزى تسميتها بـ"عاشور"، إلا بعد أن سألت أحد مشاكسيها، فقال إنه جاء من خضوعها لمعاشرات جنسية، كتلك التي تخضع لها جاموسة أو بقرة، أو حتى عنزة، فتتحول إلى "عُشر"، أي حامل.

قالت لي أمي: "السر يعلمه ربنا.. الراجل منطّش بكلمة لحد ما مات وساب المتعوسة ملطشة للي يسوى واللي ما يسواش. الله يرحمك يا أمين ويسامحك".

25

لماذا هادَنَ تنظيم "الضباط الأحرار" جماعة "الإخوان المسلمين"، المحظورة من قبل النظام الملكي، وواصل ذلك سامحاً لها بالعمل العلني، إلى أن وقعت محاولة اغتيال عبد الناصر في الإسكندرية؟

كان ذلك السؤال ينطلق من تحقيق صحفي، شرعتُ في تنفيذه، يا طاهر، لكن رئيس تحرير "المحرسة للأنباء"، قال لي إن الظرف غير مناسب لطرح مثل تلك الأسئلة أصلاً. كان يمكن أن أحاول نشره عبر "عرب اليوم"، ولكن ظرفها أيضاً يحول دون ذلك؛ ليس لانخفاض سقف ما تسمح بنشره، وإنما لأنها لم تعد موجودة الآن، سوى عبر موقع إلكتروني مساحته محدودة جداً، ولم تعد تتسع سوى لأخبار ومقالات سياسية، يتحقق عبرها أدنى حد ممكن للوجود.

من بين الإجابات التي تلقيتها يا صديقي عن هذا السؤال: "فاشية عبد الناصر وجماعته لا تختلف كثيراً عن فاشية البنّا وجماعته، فطبيعي أن يتتاغما حتى تتضارب المصالح، ولم يكن حمزة البسيوني وصلاح نصر بأقل إرهاباً من عبد الرحمن السندي، قائد الجناح المسلح والتنظيم السري للجماعة.. الفارق الوحيد يتجلى في كيفية اختطاف مصر وقتل الأبرياء بين السر والعلانية". وقال آخر: "الصراع مع الجماعة بدأ قبل حادث المنشية، ففي فبراير 1954 صدر حكم بحظرها، وتم القبض على الهضيبي وعبد القادر عودة وآخرين، وعندما قدم محمد نجيب استقالته في آخر فبراير 1954 التي أعقبتها مظاهرات، وكموقف تكتيكي صدرت قرارات مجلس قيادة الثورة برفض قبول تلك الاستقالة، وبعودة الجيش إلى ثكناته في موعد أقصاه يونيو 1954، والإفراج عن الهضيبي وعودة وبقية الإخوان. وبدعم من الإخوان ثبت عبد الناصر أقدامه، وتجاوز أزمة مارس، ثم وقعت

اتفاقية الجلاء وأعقبها إطلاق النار عليه (حادثة المنشية) وبدأ في تفكيك التنظيم السري عبر محكمة الثورة".

ومن الإجابات التي تلقيتها كذلك عن السؤال نفسه، بعد أن وضعته على الفيسبوك: "الإخوان والضباط لهم الجذور النفسية والفكرية والثقافية نفسها، وهو ما يجعلهم متشابهين في المزاج ونمط التفكير، وعادة ما يجتمع المتشابهون في البدايات. ولكن مع السير حثيثاً نحو العمل الميداني، فإنهم لا يلبثون أن يختلفوا ويفوز منهم من كان أقدر على الوفاء لسماته الفكرية والنفسية، بالاستناد إلى المكر والدهاء وامتلاك القوة التي تمكنه من القدرة على المبادأة".

في 1981-6-23؛ جرى أول احتفال بعيد ميلادي.

رأيتُ في بلوغي الـ 18 ما يستحق أن أحتفل به. جهزتُ للأمر بمعاونة أخي ماهر.. اشتريتُ الدقيق والبيض والفانيليا، لتصنع أُمي منها كيكة، ودعوتُ من أصدقائي المقربين أشرف علام (هو الآن سائق قطار) ورمضان البدالي (يمتلك حالياً سيارة أجرة)، وابن خالتي زهرة؛ محمد فايز (الذي يعمل منذ طفولته سمكري سيارات، ثم اختار أن يكون بائع خردوات في الأسواق الريفية، وعاش لسنوات عدة في ليبيا)، وآخرين لا أتذكرهم الآن.

وضعتُ شريط كاسيت فارغاً في جهاز التسجيل، وشريطاً آخر عليه عزف عمر خورشيد وفرقته لعدد من أغنيات أم كلثوم.

تقمصتُ يا طاهر دور المذيع عبر أسئلة كنتُ أوجهها للحضور، ليلتقط الجهاز الأول صوتي وأصوات الحضور، وفي الخلفية موسيقى "تصويرية".

في 1981 أيضاً؛ سمعت للمرة الأولى تعبير "شجاعة أدبية".

كان عمر منصور، يسبقني بعام دراسي.. كنا في مدرسة الملك الكامل. دخل عمر فصلنا.. كان يرتدي بدلة وربطة عنق، فبدأ أكبر من سنه، حتى أنني ظننتُه مدرساً جديداً. لم أكن قد رأيتُه من قبل، لكني سمعتُ أنه حرق علم إسرائيل في فناء المدرسة، عقب انتخابه رئيساً لاتحاد طلاب المحافظة.

توجّه إلينا بحديث لا أذكر الآن شيئاً منه، وما إن أعطانا ظهره في طريقه للخروج من الفصل، حتى قال زميلنا مصطفى شاكر كلاماً ينطوي على سخريّة من ذلك الناثر المتأنق. التفت عمر إلينا من جديد، وقال: "طبعاً، اللي اتكلم مش هيقول أنا اللي اتكلمت... ياريت يخللي عنده شجاعة أدبية ويعترف!!"

ولما لم يرد أحد، انصرف وهو يبرطم، فتعالى ضحكنا، وقام مصطفى إلى السبورة، ورسم بالطباشير بورتريةً كاريكاتوريةً لزميلنا المتعالي.

سيواصل مصطفى شاكر رسم عمر منصور.. الأول بحكم أنه أصبح رسامًا صحفيًا في مجلة "روز اليوسف"، والثاني بحكم بلوغه الصفوف الأولى في المعارضة، باعتباره من قيادات حزب الوفد الجديد.. بات اسم عمر منصور يتردد بقوة في مختلف وسائل الإعلام، خصوصًا بعدما انشق على الوفد وأسس حزبًا ليبراليًا، ونجح في أن يصبح عضوًا منتخبًا في البرلمان عن إحدى دوائر القاهرة، وليس المنصورة، مع أنها مسقط رأسه ومنطلق نضاله السياسي، الذي قيل إنه كان ينسق بشأنه مع أجهزة الأمن، ومن ثم جرى إعداده لخوض أول انتخابات رئاسية في مصر، تُجرى بين عدد من المتنافسين.

27

عدتُ إلى رواية "صورة عتيقة"، واستوقفني هذا المقطع يا صديقي: "كانت نفسيًا قد تربت على يد الراهبات، فضلًا عن أنها تتحدر من أسرة من الطراز القديم، حيث لا تذكر مطلقًا وظائف الجسد وخصوصا المتعلقة منها بالتناسل.. راحت تستكشف جسمها، وتعلمت مبادئ أقدم فن عرفته البشرية، وهيأت نفسها لليوم الذي ستمكن فيه من تطبيق النظرية عمليًا. المتعة التي ستجدها في المستقبل تستحق مجازفة الذهاب إلى الجحيم".

أنا يا طاهر قرأت مثلك معظم، إن لم يكن كل، روايات إيزابيل الليندي، وأحببت هذه الرواية بالذات، لكني أحببت أكثر روايتها "باولا".

في استدعاء الجذور، يمكنني أن أقول إن جدي، توفيق الأول، قد بلغت ذريته بضعة آلاف موزعين حاليًا على بلدان عدة، منها عزبة زوزو بقريّة ديمشلت، حيث يعيش أبناء وأحفاد محمد محمود توفيق، الشهير بزوزو، وهو ابن أكبر أحوالي.

هناك استمعتُ إلى مزيد من الأساطير من المهندس سعد محمد محمود توفيق (تخطى السبعين من عمره) تمحورت حول الجد توفيق. قيل إنه مات سنة 1961 عن 115 عامًا. كان يجلس في حجرة علوية (في الدراكسة القريبة من ديمشلت) ويقرأ في المصحف.. طلب من خالي بكر أن يشتري له قراميط من منية النصر لتجهزّ منها وجبة الغداء.

انتبه أهل الدار إلى وفاته غير المتوقعة! بما أنه كان في تمام عافيته عندما نزل إليهم كلُّه وهو ينجح ويعوي ويبيكي.. سعدوا ليجدوا أنه قد فارق الحياة. قيل إنه أنجب أصغر أولاده، خالي محمود، بعد أن تخطى التسعين. نعم كان ابنه الأول اسمه محمود، ومات في حياته، فأطلق الاسم نفسه على آخر أبنائه.

وقيل إنه ضاجع إحدى زوجاته ليلة وفاته. وقيل إنه كان كلما مات له طفلة/ كان يتولى بنفسه تغسيله/ وتكفينه/، وما إن يفرغ من مراسم دفنه/، يعود إلى البيت ليشغل الفونوغراف ويستمتع إلى أغانيه المفضلة، وسط استغراب مكتوم من الأهل والجيران.

كان فارغ الطول عريض المنكبين متوسط السُمرة، قوي البنية. أما كيف جاء من أقصى الجنوب (النوبة) إلى أقصى الشمال (الدقهلية)، فقد قيل إنه جاء صبيًا وراء عمّة له، سبقته في الوفود إلى الدراكسة حيث تزوّجت، وقيل إنهما جاءا معًا عبر النيل.

حتمًا سأعود إلى تلك السيرة لاحقًا.

28

ذهبتُ إلى شقة خالتي أم كلثوم لأشاهد العرض العسكري؛ إذ لم يكن عندنا تلفزيون. كانت الجريدة التي اشتريتها كعادتها مع الفطار تتحدث عبر عناوين ضخمة عن أسلحة ستعرض للمرة الأولى. فائدة كامل تشدو: "يا حبيبنا يا سادات"، وسيد مكاوي يغني: "كان قلبي معاك وأنت هناك"، وعبدالحليم يردد: "عاش اللي قال للرجال عدوا القنال".

منصة العرض يتوسط صفّها الأمامي السادات، وعلى يمينه نائبه حسني مبارك، وعلى يساره وزير الدفاع عبد الحليم أبو غزالة.

كان عم محمود؛ زوج خالتي، قد خرج في ذلك اليوم مبكرًا، كعادته إلى عمله. كان يعمل سمكري بوابير جاز متجولًا، يحمل صندوق العدة المستطيل، بأن يعلقه بحزام على كتفه الأيسر. حين عاد عصر ذلك اليوم إلى البيت، جلس أمامه كعادته ليصلح بوابير أخذها من زبائنه، ولكنني لاحظتُ أنه شارد على غير العادة. أنجز في خلال ساعة بعض العمل، دون أن يغني بصوت فريد الأطرش، كما اعتاد أن يفعل.. دخل إلى الشقة في الدور الأرضي وتناول الغداء مع خالتي وأولادها، زينب وسامي ودولت وعزة. كان إبراهيم، آخر العنقود لا يزال يرضع.. أكلت معهم، وأنا أفكر مجددًا في ما وراء قطع إرسال التلفزيون فجأة. لم أقتنع بما أذيع في نحو الثانية مساء عن أن إطلاق النار على المنصة تسبّب في إصابة الرئيس بجروح، وأنه جرى نقله إلى أحد المستشفيات لتلقي العلاج.

لكن تبين في ما بعد أن ذلك هو ما حدث بالفعل، إلا أنه تسبب في قتل السادات على الفور؛ أي إنه حين نقلته طائرة عمودية إلى المستشفى العسكري في المعادي، كان قد فارق الحياة، وهو ما سيتم إعلانه بعد بضع ساعات.

قبل أيام من حادث المنصة، أصر السادات على زيارة المنصورة ووصلها في قطار مفتوح من الجانبين، ثم تجول في أنحائها والأنحاء المجاورة في سيارة مكشوفة. أنا تابعت تلك الزيارة مع أعداد كبيرة من طلاب المدارس، وغيرهم من الأهالي.. شاهدتُ الموكب في طلخا، وقت عودة الرئيس من زيارة مصنع السماد. عبرت كوبري طلخا عائدًا إلى المنصورة، وانضمت إلى جموع كانت مصطفة في شارع السكة الجديدة، لأشاهد الرئيس مجددًا وهو يلوح بيديه واقفًا في السيارة المكشوفة، فيما يتعالى الهتاف: "بالروح بالدم نفديك يا سادات".

كانت هناك معلومات تؤكد أن متطرفين رتبوا لاغتياله خلال تلك الزيارة. كان من سينفذ الاغتيال - كما قيل في ما بعد- هو عبود الزمر ضابط المخابرات المفصول من القوات المسلحة، والذي انضم إلى تنظيم "الجهاد".

قال السادات في ذلك اليوم عبر الإذاعة والتلفزيون: "إنني أعرف أن هناك ضابطاً، متهمًا هاربًا، وربما هو يسمعي الآن، لقد اعتقلنا الآخرين جميعًا في خمس دقائق، وإذا كان هو قد تمكن من الفرار، فإنني أقول له إننا وراءه هو الآخر".

كانت المدينة التي انتفضت مع بقية الوطن ضد سياسات السادات في 18 و19 يناير 1977، حتى كاد حكمه يسقط، تلفها قبل اغتياله بأيام لافتات كتب عليها: "مرحبًا بزعيم الوحدة الوطنية"، "مرحبًا ببطل الحرب والسلام".

أنا عرفتُ في ما بعد أن وزير الداخلية النبوي إسماعيل حذره من السفر إلى المنصورة بالقطار، واقترح عليه السفر إليها بالطائرة، ثم حذره بعد ذلك من حضور العرض العسكري، وردَّ عليه في المرتين بقوله: "أنت هوال وخوآف، يا نبوي".

طوال الطريق من القاهرة، كان السادات يحيي الجموع على الجانبين، وأثناء ذلك تلقى سكرتيره رسالة لاسلكية تفيد بأن متطرفًا يستقل سيارة "فولكس فاجن" ينوي اغتيال الرئيس.. كان المقصود هو عبود الزمر، الذي كان برتبة مقدم في الاستخبارات العسكرية، قبل فصله من الخدمة.

جلستُ على الأرض، فيما كان التلفزيون فوق ترابيزة في نهاية الحجرة بين الدولاب والسرير. كانت الشاشة تعرض طائرات الفانتوم؛ وهي تمارس ألعابًا بهلوانية، ثم أعلن المذيع: "والآن تحييء المدفعية".. تقدم قائد طابور المدفعية لتحية المنصة، وحوله عدد من راكبي الدراجات النارية، وفجأة تعطلت - كما عرفتُ في ما بعد- إحدى الدراجات، ونزل العسكري من فوقها وراح يدفعها أمامه.

في تمام الثانية عشرة والثلاث قال المذيع: "إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى". هنا وقف القناص وأطلق دفعة من الطلقات استقرت إحداها في عنق الرئيس، وقيل إن آخر ما تقوه به مذهولاً هو: "مش معقول".. ولكني قرأت شهادة مصور صحفي حضر الواقعة أن المذيع الداخلي هو الذي قال: "مش معقول". قرأت أيضًا أنهم قالوا لحسني مبارك: "مش عاوزينك. إحنا عاوزين الفرعون".

المصور الصحفي قال في شهادته إن الكاميرا الخاصة به تعطلت في تلك الأثناء، ففاز زميل له بدخول التاريخ، باعتباره الوحيد الذي سجل بكاميرات عدة ما حدث خلال دقيقة واحدة بدت كأنها دهر، ومن ثم اعتمدت صحف العالم على تلك الصور، وأشهرها واحدة تظهر الضابط خالد الإسلامبولي يسند رشايشه على سور المنصة، مطلقاً رصاصاته من دون تمييز، بعدما سارع الجالسون في الصف الأول إلى الانكفاء على الأرض.

لقد مثلوا بالجنة؛ إذ صعد أحدهم سلم المنصة من جهة اليسار، وتوجَّه إلى حيث ارتمى السادات وركله بقدمه، فقلبه على ظهره، ثم طعنه بالسونكي، وأطلق عليه عيارًا ناريًا، ليتأكد. كما قال

عندما اقترب المترو من محطة السادات، قال مذيع داخلي: "المحطة الحالية هي محطة السادات. ستُفتح الأبواب جهة اليسار"، وكرر العبارة نفسها مذيّع آخر، ولكن باللغة الإنجليزية، فيما كان بائع يردد: "أنا جايبيك السد العالي بجنيه واحد. معايا أربع مقاسات لجلدة منع التسريب بجنيه واحد. أنبوبة الغاز لو تسرّب اقل بوزها. للحنفية وللفلتر والسخان بجنيه واحد".

خلال الزيارة التاريخية، سمعنا أن السادات ذهب إلى قرية دمر و ليزور سائقًا أواه خلال هروبه على خلفية قضية مقتل الوزير أمين عثمان قبل ثورة 1952.. وقالت خالتي أم كلثوم حين قرأنا الخبر في الصفحة الأولى: "والله فيه الخير"، قالتها بنبرة لا تخلو من تحفظ.

في قاعة كبيرة داخل مبنى المحافظة، اجتمع السادات وكان معه نائبه بموظفين وسياسيين كبار، ومما قاله وخلفه لافتة كتب عليها: "حبيب الشعب- السادات": "بسم الله. إخواني، أبنائي وبناتي. في المعتقل درست اللغة الألمانية وأكثر ما شدني الأمثال، التي تعبر عن القيم الأساسية في حياة الإنسان: أن تُحب وأن تُحب لهي أعظم نعمة في الوجود!" تصفيق حاد وهتاف: "حبيب الشعب السادات".

في طريقي إلى موضع يتيح لي رؤية السادات، مررتُ بمنزل مهجور في منتصف شارع حسين بك، الذي ينتهي بالتقاطع مع السكة الجديدة، وتحديدًا عند مقهى "معروف" الذي تبدأ من عنده حدود ميت حدر، الممتدة حتى مشارف النيل.

كان الناس يقولون إنه منزل موشيه ديان. كنا صغارًا نردد القول نفسه، ونهتف: "موشى ديان الهش الهش ضرب مراته بطبق المش". ديان كان الأشهر يا طاهر بين قادة إسرائيل في الأوساط الشعبية المصرية، وتأتي بعده جولدا مائير.

يتوسط المنزل، منازل أخرى عتيقة، على يمين الشارع نفسه، في قلب الحسينية. وقبل سنوات عدة علقت سلطات الحكم المحلي، كما أخبرني أخي ماهر، لافتات تؤكد أن الأرض التي أنشئت فوقها تلك المنازل "مملوكة للطائفة اليهودية، ولا يجوز التعامل عليها". ومع ذلك وضع بعض تجار قطع غيار السيارات أيديهم على معظمها. وكان أحد هؤلاء اليهود شريكًا لأسرة رفعت السعيد مبتكر مصطلح المتأسلمين على ما أعتقد، في أعمال تجارية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي.. رفعت السعيد ذكر أمر تلك الشراكة ذلك في الجزء الأول من كتابه "مجرد ذكريات".

بيت موشيه ديان لم يبق منه سوى سورته الخارجي.

لم أجد في السيرة الذاتية لديان -الذي كانت خالتي أم كلثوم يا طاهر تفخر بأن السادات هزمه مرتين، الأولى في الحرب والثانية في مفاوضات السلام- أي شيء يشير إلى أنه عاش في مصر، ومن ثم المنصورة، في أي مرحلة من مراحل عمره. فهو، كما جاء في "ويكيبيديا"، ولد في فلسطين قبل مولد السادات بنحو ثلاث سنوات، ومات بعد موت السادات بنحو عشرة أيام، عن عمر يناهز 66 عامًا، نتيجة أزمة قلبية، علمًا بأنه أصيب في سنواته الأخيرة بسرطان القولون.

وقيل إنه استقال لعدم رضاه عما وافق عليه رئيس الوزراء مناحم بيجن، وتضمنته اتفاقية السلام.. حدث أيضًا كما تعرف يا طاهر أن استقال عددٌ من مساعدي السادات، احتجاجًا على رفضه رؤاهم السياسية في هذا الصدد. لكن بعضهم أقرَّ يا صديقي بعد مرور نحو أربعين عامًا بأن السادات كان بعيد النظر، ولولا ذلك لظلت سيناء محتلة حتى الآن.

في المنصورة، مناطق اشتهرت منذ أيام السادات الذي يدعي خصومه أنه كان يدخل الحشيش، بترويج المخدرات مثل سوق ستوتة، وسوق السمك وعزبة سراج وعزبة الشحاتين، باعتبارها مناطق عشوائية داخل المدينة عُرفت بـ"مناطق خط النار". عزبة الشحاتين كنت أجلب منها ما يحتاجه أبي من أفيون. الآن يا طاهر، ومع ظهور التليفون المحمول، أصبح الأمر أكثر تعقيدًا على رجال الأمن للسيطرة على الوضع وضبط التجار والموزعين، وتغير حال التوزيع من مكان ثابت إلى التوصيل دليفري "على رتة" وفي أماكن متغيرة.

كما تعرف يا طاهر، فإنه في بداية 1981 اشتركت إسرائيل للمرة الأولى في معرض القاهرة الدولي للكتاب (الدورة الـ13)، وقد أقيمت بأرض المعارض بالجزيرة، وافتتحها جيهان السادات، واستمرت من 29 يناير إلى 9 فبراير. ويقال إن هذه الدورة شهدت بيع كتب إسرائيلية، من خلال دار نشر مصرية.

الاجتهادات ذات البعد الخرافي، كانت منتشرة جدًا في تلك الأيام، أيام السادات، خصوصًا عبر التلفزيون الذي كانت خالتي أم كلثوم شغوفة به جدًا؛ خصوصًا عقب صلاة الجمعة حيث يذاع اللقاء مع الشيخ الشعراوي، وفي الثامنة مساء الاثنين حيث يذاع برنامج "العلم والإيمان" لمصطفى محمود.. كان الأخير يا صديقي كما تعرف مستشارًا خاصًا للسادات، ويقال إنه رشح لتولي منصب وزير الأوقاف، أو وزير الثقافة.

قدّم مصطفى محمود 400 حلقة من "العلم والإيمان" على مدار 18 عامًا.. وصفه صفوت الشريف بأنه "من فلول السادات" وأوقف برنامجه. له 89 كتابًا هي دائمًا بين الأكثر مبيعًا، ويقال إنه مبتدع "الإعجاز العلمي في القرآن" مع عبدالرزاق نوفل، وكان يكتب بانتظام في مجلة "صباح الخير". صادر عبدالناصر أحد كتبه، ولكن السادات ألغى تلك المصادرة؛ مما أدى إلى اتهامه بالإلحاد. ويمكن أن نلاحظ يا صديقي أن التقارب الشخصي بين مصطفى محمود والسادات استمر حتى اغتيال الأخير، وهو ما نتج عنه دخول الأول كما يقول مقربون منه في حالة حزن شديدة استمرت فترة طويلة، بعد أن نعاه قائلاً: "كان السادات يغمض عينيه فيرى المستقبل، ونحن نفتح عيوننا ولكن نرى الماضي!.. كيف لمسلمين أن يقتلوا رجلاً، ردّ مظالم كثيرة وأتى بالنصر؟!".

وفي الحُلم هذه المرة يا دعاء، أنتِ تحضرين ولا تحضرين؛ إذ أراني أفتش عنك، وما من سبيل لبلوغ مكانٍ علمتُ أنك فيه رغمَ أنفك، بعدما أخلقتِ عمتي وأخوأكِ وعدَّهم بأنك لي، بأن زوجك لعجوزٍ في الليلة ذاتها، التي كان يفترض أن تكون ليلة زفافنا.

أبكي بحرقَةٍ وأمسك بخناق أخيك هذا مرة، وبخناق أخيك الآخر مرة، فيما عمتي تتهرب من مواجهتي.. وحين أحاصرها بإصرار، تقول إنه لا ذنب لها في ما حدث. لكنني لا أصدقها. ثم أنني أكاد أختنق من شدة الحنق بسبب رفض الجميع الإفصاح لي عن المكان، الذي حملك العجوز إليه.

لا سبيل لبلوغ مكانك، فيما عقل لا يريد أن ينطق.

لم يسبق لي أن رأيته ينطق.

يكتفي بنفخات الضجر والخطوات السريعة نحو ما أجعله.

هو الحلم ذاته يتكرر، فيما أنا وأنتِ يضمنا سريرٌ واحدٌ، ويحرص كل منا على ألا نتماس. ومع ذلك يتكرر أن أضبطني في حضنك. يحدث هذا وكلانا مستغرق في النوم، وما إن ننتبه حتى نعود إلى ضبط المسافة الضامنة لعدم التماس.

كان ذلك قبل أن أقرر النوم وحدي، ومن وقتها بات باهر ينام في سرير، كنا قد وضعناه في حجرة المكتب، للطوارئ.

توجَّب عليَّ نقل جزء من مكتبتي إلى الغرفة، التي بت أنام فيها وحدي.. تلك الغرفة التي كانت مخصصة لحنان وحنين وباهر، وبعد أن تزوجت البنات، أصبحت لباهر وحده. كانت تضم سريرين وخزانة ملابس وتسريحة ووحدي كومودينو.. نقلنا أحد السريرين إلى الغرفة التي تضم المكتبة، وفي هذه الغرفة مكتب قلما استخدمته.

مع الوقت أصبحت تلك الغرفة مكاناً مناسباً للمدرسين الخصوصيين، ولكن بعد انتشار مراكز الدروس الخصوصية لم يعد المدرسون في حاجة إلى التردد على شقتنا. حدث ذلك على كل حال، بعد أن تزوجت حنان ومن بعدها حنين. لم يقدر لأي منهما الالتحاق بالجامعة، حصلت حنان على دبلوم سياحة وفنادق نظام ثلاث سنوات بمجموع أقل من 60%، والتحق بمعهد كومبيوتر مدة الدراسة فيه عامان انقضيا، دون أن تحتاج إلى دروس خصوصية، وعملت لبعض الوقت في صيدلية ثم في محل لبيع الأحذية، وخضنا معها عديداً من مشاريع الزواج، حتى تكفل آخرها بالنجاح. أما حنين فحصلت على الإعدادية بمجموع 50%، فخطبها فوراً ابن خالها، والتحق بمركز لتعليم التطريز على القماش، وفي اليوم التالي لبلوغها الـ18 تزوجت.

يفصل بين زواج الأولى وزواج الثانية عدد قليل من الأشهر.. نقلت أحد سريري غرفة الأولاد إلى غرفة المكتبة، ولاحظت أن باهر بات يفضل النوم فيها، بعد أن يقضي وقتاً طويلاً مع الكمبيوتر الذي توقفت عن استخدامه مكتفياً بكمبيوتر الشغل سواء في "عرب اليوم" أو الوكالة.

هنا رادنتي فكرة هجر دعاء في المضاجع.. تركت المكتب القديم في مكانه، واشترت مكتباً جديداً وضعته في الغرفة، التي قررت أن تكون لي وحدي. والسرير الذي تبقى في غرفة الأولاد أهديته لحنان لينام عليه ابناها، واشترت غرفة نوم جديدة بسرير صغير ودولاب من ضلفتين.

31

قالت أمي إن عمتي شريفة، وأظن أنها كانت أكبر أشقاء أبي، قد أفنعتة بالهرب من المستشفى والعودة إلى عزبة عقل قبل أن يقطعوا له إحدى رجليه. وقال لي مجدي عبدالوهاب، وهو ابن عمتي نفسها ويكبرني بنحو عشر سنوات، إن أبي حكى له أن طبيباً شاباً وصف له بعد متاهة طويلة مع أطباء أصروا على قطع ساقه، مرهماً رخيصاً ظل يدهن منه أصابع قدمه المتقرحة، فكان الشفاء، ومن ثمّ النجاة من البتر.

لكن ما أذكره - ولم يحكه لي أحد يا طاهر - هو أنني كنت أخرج مع أبي الذي كان يُعرف بين زبائنه بعبده الأبيض، أو عبده المصري، ونجتاز كوبري عزبة عقل لندلف إلى شارع حسين بك حيث محلات قطع غيار السيارات وورش كل ما يتعلق بإصلاح السيارات من خرطة وكهرباء وسمكرة ودهان. مشط قدمه اليمنى مغطى بضمادات، وكان يضع تلك القدم فوق فردة الشيشب ويربطهما معاً.. كنت أجاوره من ناحية، فيما العُكاز في الناحية الأخرى.

ننتهي من ذلك المشوار، لنعود إلى البيت ومعنا ما نحتاجه من طعام، عبر الكوبري نفسه الذي هو - في واقع الأمر - نفق تعلوه السكة الحديد الميري. كان أبي في تلك الأيام ودائماً ذا مزاج سيئ جداً عند الاستيقاظ من النوم. كثيراً ما كان يسب أمي ويسبنا جميعاً، ثم يلاطفها ويبيش في وجهها بعد الاصطباحة التي تستغرق طقوسها الثابتة نحو ساعتين من التوتر والتوجس، خصوصاً بعد أن تسرّب أخي الأكبر من التعليم وبات يدخل الحشيش خارج البيت.

أما أنا فأذكر أنني كنت أتعاطى عقار "□اليوم"، أذكر أنني تعاطيته بعد أن عدت إلى عزبة عقل، في شكل شبه نهائي، استعداداً للالتحاق بالجيش بعد انتهائي من دراستي الجامعية في القاهرة، أو ربما قبل ذلك، بغرض التغلب على الأرق والكآبة، التي لم أدرك أنني مصابٌ بها بشكل مزمن، إلا بعد نحو 25 سنة من تلك الذكرى.

كنت أتناوله دون استشارة طبيب.. كنت أشتريه من صيدلية نزيه في شارع مسجد أبو حليلة، أو أطلبه من أبي الذي تركز عمله في تلك الفترة على بيع أدوية، كان يشتريها من تجار في سوق غزة في العتبة، غالبيتها منشطات جنسية، وعقارات في جدول المخدرات منها

أبو صليبة وسبراكس.. كان يبيع أيضاً ملح فوّار "اينو" و"أبو فاس"، و"فيتامين "فيترا"، الذي كان يقول عنه للزبون إن كبسولة واحدة منه تعادل فرخة.

كان أبي وأخي الأكبر يتباريان في إيداننا، قبل أن يتبادلا السباب والتشابك بالأيدي.

بعد الاصطباحة، كان يحلو لأبي أن يغني موايل، أشتهر بها صديق صباه وشبابه المبكر أنور العسكري.. كنت أطرب لصوته الشجي.

على أية حال، هو لم يكن أبداً يا طاهر في بشاعة والد سارد "الخبز الحافي"، أو على الأقل لم أشعر تجاهه بمثل الكراهية التي كنت أشعر بها تجاه أخي الأكبر، والتي يمكن القول بأنها تلاشت الآن، أو بالأدق كُمنّت في مكان قصي من عقلي.

32

"جمعية كرم الإسلام لمساعدة الأيتام والفقراء والمساكين".

استوقفتني تلك اللافتة المرفوعة على مبنى ملحق بمسجد. بجوار السور الجانبي للمسجد نفسه.. ثمة لافتة أخرى استوقفتني أيضاً: "مائدة الرحمن الدائمة. 3 وجبات من 6 صباحاً إلى 10 مساءً. السادة الأشراف- ساحة أهل الخير".

كان موقفاً عجيباً؛ ولهذا لا أود أن أفوت فرصة تسجيله هنا قبل أن أنساه.. أشك في أنه يمكن أن يُنسى، ولكن خبرتي تؤكد عكس ذلك، فلطالما نسيتُ أموراً كنت أعتبرها عند وقوعها في غاية الأهمية.. يمر الوقت وأنسى يا طاهر. وبالطبع تؤرقني إلى الآن أمورٌ فشلتُ في نسيانها.

ما علينا.. الذي حدث هو أنني بالغتُ في تعنيف باهر، عندما عاد ذات مساء بسيارتي وقد انكسر جزء من جنط إحدى عجلاتها. وازداد عنفي عندما أخبرني العامل في محل الكاوتش المجاور للعمارة، التي نسكن فيها، أن إصلاح هذا الكسر سيتكلف 500 جنيه.. الجنط الجديد ثمنه حوالي 900 جنيه، جنط صيني، كان باهر قد أفنعني بأن نشترى طقم جنوط سبور للسيارة، ولم أنتبه إلا بعد حادثة كسر الجنط إلى أن الطقم صيني، وما كان ينبغي أن أنساق لإلحاح باهر؛ فالجنوط القديمة وهي صناعة كورية، تبين أنها لا تعوض، بما أنها من حديد لا ينكسر مطلقاً، وقد تنازلتُ عنها للأسف بثمن بخس. كان ذلك في بدايات أزمة "عرب اليوم"، وقبل أن ينفد ما ادخرته في حساب التوفير.

الجنط لا يباع مفرداً.. لا بد من شراء الطقم كاملاً. وافقتُ على تصليحه بالمقابل الذي حدّده صاحب ورشة الكاوتش.. هو قال إنه سيصلحه عند متخصص، ليعود كما كان. كان اليوم هو السبت، واستغرقت عملية تصليح الكسر ساعات عدة، وتسلمته فيما كانت الورشة تستعد لإغلاق بابها في نهاية يوم عمل، تعقبه إجازة الأحد الأسبوعية.

في يوم الخميس التالي، كنت عائداً يا صديقي من مصر الجديدة في طريقي للمعادي من الأوتوستراد، وأمام مدخل مستشفى "المقاولون العرب" توقفت السيارة.. كان في نيتي أن أمر على محطة بنزين، تبعد عن هذا المكان مسافة 100 متر تقريباً. لم تظهر لي علامة اقتراب نفاد البنزين. توقفت ربما لعيب في البطارية أو الدينامو.. اتصلت برزق الميكانيكي، الذي اعتدت التعامل معه لقرب ورشته من مسكني، فلم يرد.

سألت عن ورشة ميكانيكا قريبة، فدلني صاحب كشك سجانر على واحدة.. ذهبت إليها تاركاً السيارة جثة هامدة. اصطحبتُ عاملاً في الورشة وعدنا إلى السيارة.. قال بعد فحص استغرق نحو عشر دقائق إن المشكلة في طرمبة البنزين غالباً، وللتأكد علينا جر السيارة إلى الورشة.

في تلك الأثناء، كان الانشغال على أشده بموضوع حدود مصر البحرية مع السعودية، لكني لم أكن أتوقع يا طاهر أن يسألني صاحب الورشة الذي تخطى الستين من عمره، عن رأيي فيه.. سألني بمجرد أن عرف أنني صحفي، قلت له إن الأمر واضح.

نظر نحوي بارتياح.. كان يجلس أمام الورشة، وقف وقال لي إنه سيتولى بنفسه تصليح العطل.

جلست أتابعه فنذرت، أنه ذات صباح، بينما كانت سيارتي عند إبراهيم السمكري، ركزت في محادثة بين راكبين، في المترو، وكتبتها بمجرد نزولي في محطة سراي القبة قبل توجهي إلى مكتب "عرب اليوم" في مصر الجديدة: "بص يا سيدي، أنا فاكرا إنني اشتريت سنة واحد وتمانين خروف وزنه 80 كيلو، بميت جنيه، وإمبارح لاقيت واحد صاحبي بيكلمني عن إن صاحب الشغل بتاعه اشترى شقة بأربعة مليون... فقلتله هو فيه حد في بلدنا معاه المبلغ ده، فقاللي ده بيدفعه زي ما بيدفع فاتورة عشا عامله لأصحابه في مطعم فاخر".

33

القفاص هو من يصنع الأقفاص.

أما أنا، يا طاهر، فعملي الذي واصلت ممارسته حتى بعد الالتحاق بالجامعة والتخرج، يأتي لاحقاً، وهدفه هو تمكين تلك الأقفاص لتتحمل ما ستعاباً به من خضار أو فاكهة، لأطول وقت ممكن. وكان يدخل في نطاق العمل نفسه إعادة تمكين الأقفاص نفسها حين توشك على لفظ أنفاسها الأخيرة، فيتيح ذلك استخدامها مجدداً إلى أن تتفكك أو صالها وتصبح بلا فائدة، سوى أن تشعل فيها النيران للتدفئة في ليالي الشتاء.

وكالة أنباء مصر المحروسة

الإدارة العامة للتنمية الإدارية

إدارة الكسب غير المشروع

السيد/ حسين عبد الحميد جاد علي الجدامي

تحية طيبة وبعد

يرجاء التقدم إلى إدارة الكسب غير المشروع بالإدارة العامة للتنمية الإدارية، بالدور السادس بإقرار ذمة مالية دوري عن سنة/2018 ، وكذا صورة بطاقة الرقم القومي، وذلك لانقضاء خمس سنوات على الإقرار السابق الموجود بملف الكسب غير المشروع الخاص بك، وذلك بناء على طلب إدارة الكسب غير المشروع بوزارة العدل، وذلك لعدم تعرضك للمساءلة القانونية.

مدير عام الإدارة العامة للتنمية الإدارية

نهال خالد

تحريرا في 8 أغسطس 2018

كسب غير مشروع! و"ذلك" مكررة ثلاث مرات!

عمومًا أحب أن أقول إن راتبي بالحوافز وبدل التكنولوجيا، الذي تصرفه الدولة لأعضاء نقابة الصحفيين (جدول المشتغلين) لا يتجاوز الستة آلاف جنيه شهريًا، وقد تبين لي - بعد توقف "عرب اليوم" عن دفع رواتب موظفيها، وأنا واحد منهم- أنه لا يكفي لتأمين الحد الأدنى من عيش كريم لي ولأسرتي، مع أنني مدير تحرير، وبيني وبين بلوغ سن التقاعد أقل من خمس سنوات.

قلت ذلك لنفسي يا طاهر، وليس للأستاذة نهال التي لا أعرفها.

كان سكرتير القسم قد وضع هذا الخطاب الرسمي على مكثبي، فطلبت منه بعد أن قرأته أن يشتري لي من البوستة نموذج إقرار ذمة مالية؛ لأضع فيه البيانات المطلوبة، على أن يسلمه بعد ذلك إلى الإدارة المختصة.

34

مات يحيى الطاهر عبد الله يوم الخميس 9 أبريل 1981، قبل أن يتم الثالثة والأربعين بأيام، في حادث سيارة على طريق القاهرة/ الواحات، ودُفن في قريته الكرنك بالأقصر. قرأت ذلك في حينه مع خالتي أم كلثوم. رثاه الكثير من الكتاب والشعراء، فكتب أمل دنقل: "ليت أسماء تعرف أن أباهما

صعد.. لم يموت، هل يموت الذي كان يحيا كأن الحياة أبد؟"، وكتب يوسف إدريس في رثائه (النجم الذي هوى)، كما رثاه عبد الرحمن الأبنودي وكتب: (عدودة تحت نعش يحيى الطاهر عبد الله).

أنا لم أعرفه شخصياً يا طاهر، لكن عندما طُلب مني أن أكتب شهادة عن علاقتي بالإبداع، وجدت أنه كان نقطة انطلاقي. حملت تلك الشهادة عنوان: "تماسُ أحياء دهشة صنعها يحيى الطاهر عبد الله"، وتضمنت في فقراتها الأولى ما يلي: "هل رأى أحدكم الصورة من كل زواياها، هل دققتم فيها... واضح أنكم لم تفعلوا، إذاً من أين أتاكم ذلك اليقين؟ احتار "أصدقاء الشعر" في تصنيف نص لي؛ عرضت عليهم نشره في مجلة الحائط في كلية الإعلام- جامعة القاهرة. كان ذلك في عام 1984 تقريباً. أنا اعتبرته شعراً، مع أنه كان مختلفاً عما درجتُ على كتابته مبكراً وقرأته على أصدقاء قبل أن أدسه في يد جاريتنا سهام! هم ارتابوا في النص، خصوصاً عندما لم يجدوه متوافقاً مع أي من البحور والأوزان أو التفعيلات المتعارف عليها، لكنهم نشروه، على أية حال، ودعوني لقرأته خلال أمسية سيحييها فاروق جويدة وعدد من الشعراء من أساتذة كلية دار العلوم...

وقد كان، خلال سنوات الجامعة، صلاح عبدالصبور وأمل دنقل يتصدران قائمة شعرائي المفضلين، وانضمت إليهما فدوى طوقان.. كنتُ في المرحلة الثانوية أحفظ دواوين فاروق جويدة، وأعيرها إلى سهام لنقرأها، إلى أن مللت رتابة إيقاعاته، وفي أجواء تلك المرحلة أيضاً أصابتنى مجموعة "أنا وهي وزهور العالم" ليحيى الطاهر عبد الله بدهوة، لا تزال تلازمني حتى اليوم، فضلاً عن عوالم السينما التي لأشك في أنها لعبت دوراً محورياً في تشكيل مخيلتي".

"صلاة النبي، صلاة النبي... صلاة النبي مكسبي... ميح؛ ميح، ميح".

أسمعتها تحدّث الحمّام في البلكونة. حمام ابننا باهر. كان له قبل أن يزهد الاهتمام به.

أراها تبدرُ له الحَبّ الذي أشتريه بانتظام من العلاف واسمه "كُلفة"، وهو عبارة عن خلطة حبوب، تغلب عليها حبة تسمى ذرة عويجة.

لكني لا أعرف المقصود بـ"ميح"، ولم أسألها. هي غالباً لا تعرف، وعلى الأرجح هي تردد ما سمعته من أمها.

أمي كانت تقول للدجاج وهي تناديه ليأكل: "عسل... عسل". هذا ما أتذكره، وأتذكر أيضاً أنه حين تبقّت منه، ذات موسم، دجاجة بلا ديك أسمتها "وحيدة".

تشرب دعاء القهوة. لا أراها وهي تشربها. فقط أرى الكوب المقلوب. هل تقرأه بنفسها، أم أنها تعهد بتلك المهمة إلى صديقتها المنقبة، أو الأخرى المحجّبة؟ تأتي هذه أو تلك إلى البيت، فألزمُ حجرتي، إلى أن تغادره الضيفة.

أقول لدعاء: "صباح الخير"، فترد: "وعليكم السلام".

"هي أمور مستجدة، لكنها في صميم قشور متأصلة تدين شكلي".

أقول ذلك لنفسى يا طاهر، وأتحاشى أن أبدي لها تلك الملاحظة، حتى لا نتعارك.

36

كتبتُ على الفيسبوك في 9 نوفمبر 2017، وبعد سنة نسيْتُ الدافع إلى إبداء هذا الرأي:

"في مصر؛ الإسلام السياسي مُعتمَد رسمياً وعلى أعلى مستوى، وعبر السلطات الثلاث: التنفيذية والتشريعية والقضائية، وهو متغلغل، فكراً وتطبيقاً، في شتى مناحي الحياة، وهو الأمر الذي لا بد من الاعتراف به، ومن ثمّ مساءلته، فلربما ننجو جميعاً، من الغرق تماماً، وإلى الأبد؛ في ذلك المستنقع".

ربما كان هذا البوست مرتبطاً يا طاهر بتأملي مقولة ابن خلدون: "العربُ لا يحصلُ لهم المُلْكُ إلا بصبغةٍ دينيةٍ من نبوةٍ أو ولايةٍ، أو أثرٍ عظيمٍ من الدين على الجملة".

لكني الآن أجد أن الأمر لا يخص الإسلام وحده.

تقريباً لا يوجد في عالم اليوم - كما في عالم الأمس البعيد في مصر القديمة مثلاً- نظام حكمٍ لا يتكئ على دين ما في إطار تأكيد شرعيته.

يتساوى في ذلك المستبدون الديموقراطيون، والديموقراطيون المستبدون.

لم تعرف الإنسانية بعد حكماً غير مستبد.

37

أنا في منتصف العمر؛ أبدو من النوع الذي تفضله "أومامه" بطلة رواية هاروكي ماروكامي "1984".

شخص يصلح للاستمتاع بالنوم معه لليلة واحدة.

قد تجد يا طاهر أن ذلك هذيان.. فليكن كما تجده على أية حال.

نعم، كانت هي سلمى، وثمة من يمنعها عني.

تماماً مثل دعاء.

كان ذلك حلم ليلة أمس (27 يونيو 2018).

هو أمر متكرر بالنسبة إلى دعاء، ولكنها ربما كانت المرة الأولى بالنسبة إلى سلمى.

في تلك الليلة بدأتُ قراءة أعمال موسى صبري للمرة الأولى. تساءلتُ ما الذي أحرني هكذا عن قراءته، وقد بدا لي يا طاهر متطوراً، مقارنةً بأسماء مشهورة جداً من جيل الستينيات. انتهيتُ من قراءة روايته القصيرة "حادث النصف متر"، وشرعتُ في قراءة "فساد الأمكنة".

توجهتُ قبل أن أكمل القراءة، إلى شباك غرفتي لأغلقه استعداداً للنوم، فرأيتُ كليين يداعب أحدهما الآخر بلا صوت، غير عابئين بحركة الشارع الخفيفة في الساعات الأولى من ليل خريفي. يتلامسان. يبدو أحدهما أصغر من الآخر. هل هما ذكر وأنثى؟

لا أستطيع الإجابة بما أنني لستُ في الشارع الآن. وبما أن لعبهما لم يتطور إلى النتيجة المتوقعة: أن يعتلي أحدهما الآخر وصولاً إلى التصاق، يصعب معه لدقائق انفصال الجسدين. الأصغر أسود الشعر باستثناء مساحة بيضاء ميّزت رجليه الخفيتين.. هو أكبر من أن يوصف بأنه جرو، ولكنه وصل على ما أظن إلى مرحلة القدرة على ممارسة الجنس.

أغلقتُ الشباك وكانا لا يزالان على حالهما.

38

ركب ماهر إلى جانبي. بدا متماسكاً.

لا زلت أراه أقدر مني على مواجهة الحزن.

شغلتُ محطة القرآن الكريم في الراديو.. سعدنا كوبري السادس من أكتوبر من عند محطة غمرة. وغادرناه من نزلة التحرير وانعطفنا يميناً لنتجه إلى شبرا الخيمة. كانت الساعة قد اقتربت من الثانية بعد الظهر.. وجدنا علاء الدين ينتظرنا أسفل الكوبري الدائري، ومعه والدته قبل مدخل قليب.

اكتمل عدد الذاهبين معي إلى المنصورة لتشجيع خالتي.

كنتُ شاردًا إلى حد ملحوظ أثناء القيادة.

زيارة السادات للمنصورة تابعتها بنفسى.. حادث المنصة شاهده على الهواء من تلفزيون خالتي أم كلثوم. في تلك الأيام بتُ أرى مستر وليام، الذي كان يدرس لي الإنجليزي العام الماضي يرتدي ملابس قسيس.. كان يبتسم لي، فأبادر بالابتسام له وأشد على يده.. كنتُ أرى بعض جيراننا يقبلون يده.

أما محمد سالم، مدرس الرياضيات، وكان أيضًا من أهل عزبة عقل، فقد واصل مخاطبة طلاب مدرسة الملك الكامل الثانوية يوميًا عبر ميكروفون الإذاعة المدرسية لنحو عشر دقائق، منهياً خطابه في كل مرة بآية محددة من أواخر سورة يوسف: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يوسف/108).

الاثنان شملتهما حملة اعتقالات واسعة، أعقبت اغتيال السادات.

39

في 31 يناير 2018 بلغ باهر الـ 18.

لاحظتُ أخيرًا انشغاله بحبٍ جديد.

يبدو أن تعلقه ببنت تماثله تقريبًا في العمر، بات مجرد ذكرى، أو هو في طريقه ليكون كذلك.. لكنه سرعان ما عاد إلى حبيبته الأولى!

كنت في مثل عمره، يا طاهر، أستمع وأتعذب بحب سهام، لكنني لم أتوقف مع ذلك عن تذكر أيامي مع دعاء، التي غادرت عزبة عقل مع أسرتها إلى بولاق الدكرور، وليس باب الشعرية حيث وُلدت.

بيت باب الشعرية تهدم وقام مكانه برج، غير بعيد من الميدان، الذي يتوسطه تمثال للموسيقار محمد عبد الوهاب.

الدكتور اللواء محمد عبد الوهاب. الرتبتان حصل عليهما يا طاهر في حياة السادات: الأولى دكتوراه فخرية منحه إياها أكاديمية الفنون. والثانية لواء شرفي بقرار من القائد الأعلى للقوات المسلحة.

وتقريبًا لم يظهر عبد الوهاب بتلك الصفة العسكرية سوى مرة واحدة، عندما كان السادات عائدًا من أمريكا حيث جرى توقيع اتفاقية كامب ديفيد، وتقرر أن تستقبله فرقة موسيقى عسكرية، يقودها اللواء موسيقار الأجيال لعزف نشيد "بلادي بلادي"، بتوزيع جديد ليصبح منذ تلك اللحظة السلام الوطني للبلد، بدلًا من "والله زمان يا سلاحي".

في بولاق الدكرور بنى والدها بيتًا.

سيتصل معها حاضرٌ فرضَ نفسه بقوة، طوال سنوات دراستي في جامعة القاهرة وما بعدها، حتى انتهينا زوجين تعيسين.

كانت ليلةً مأساوية، تلت ليلةً نمتُ فيها مستعبدًا بقرص "سيروكوبل 25"، لكنني بالغت في النوم حتى أوشك النهار على الرحيل، وبالطبع لم أذهب إلى العمل.. لكنني قرب المغرب اصطحبت ابني

باهر إلى بيت عمه ماهر في صفت اللبن، وهناك أخبرني برغبته في أن يبني عند شقيقته حنان، التي تقم في شقة في بيتنا المجاور لبيت عمها. عدتُ وحدي إلى المعادي، ونسيتُ أن شريط السيروكويل نفذ، وبعد أن تذكرتُ كان الليل قد انتصف، وتكاسلتُ عن النزول إلى الصيدلية وقلت لأجرب النوم من دونه.. مُنيتُ بفشل ذريع.

سهرتُ مع فيلم من نوعية الخيال العلمي عن حرب بين طاقمي سفينتي فضاء. طوال الفيلم لم ينم أحد من أفراد الطاقمين ولا شرب أو أكل أو قضى حاجة.. الوقت كله كان للعراك، وإصلاح ما يطرأ من أعطال على أجهزة شديدة التعقيد.

وفي النهاية انتصر الخير على الشر! وتم إنقاذ الكون من خطة تدمير، كان يستعد لتنفيذها شخص استفاق من تجميد امتد لثلاثمائة عام، ومعه 72 آخرون يسميهم "شعبي" (ماي بيبول).

أغلقتُ التلفزيون ولاحظتُ أن الساعة قد تجاوزت الثانية صباحًا، ومع ذلك لم يداهمني النوم.

في السرير فتحتُ رواية وشرعتُ في قراءتها.. كانت تزيد على أربعمئة صفحة. أنهيتُ قراءة 250 صفحة برُبْع تركيز، عندما سمعتُ أذان الفجر من مسجدي قباء والصالحين المتقابلين في شارع علي عبدالعزيز.. كررتُ محاولات النوم وتكرر الفشل.

انتقلتُ إلى كنبه الصالة.

أثناء ولا أستطيع أن أفتح عيني.

أشتهي النوم جدًّا، ولكنه يصير على النأي بعيدًا.

انتقلتُ إلى غرفة باهر.. نور النهار يتسلل على استحياء ثم يسطع.. لا أظن أنني أفلحتُ في اقتناص النوم قبل الثامنة صباحًا.

نومٌ منقطع بلا أي عمق.. قبل الظهر بدقائق قلتُ لنفسِي: هذا يكفي. كنتُ في الشارع عند الثانية عشرة والنصف، فتوجهتُ فورًا إلى صيدلية عبد الموجود لأشتري شريط سيروكويل.

40

لم أتوقف عن انشغالي بإجراء تحقيق صحفي عن علاقة الشد والجذب بين الحكم وجماعة الإخوان، منذ 23 يوليو 1952. ليس مهمًّا أين سأشره، ربما أجد له مكانًا يا صديقي في رواية أكتبها أنا.

قبل موته بأقل من ثلاث سنوات، قال عبدالناصر لرفاقه في اللجنة التنفيذية: "النظام الحالي استنفد مداه، ولا بد من نظام جديد، الحزب الواحد يؤدي إلى قلة ديكتاتورية".

طلب السماح بمعارضة وتعددية حزبية.

اعترض السادات، وقال إن الشروع في ذلك ينبغي أن يأتي عقب إزالة آثار العدوان.

عبدالناصر نفسه هو من رشَّح السادات لينضم إلى تنظيم الضباط الأحرار، كما تعرف يا طاهر. والسادات هو من ألقى بيان التنظيم، عقب التحرك ذي الطابع العسكري المتسق ولو ظاهرياً مع تنظيم حسن البنا. وعبدالناصر الذي كان يدرك أنه في حال صحية حرجة، هو من عيَّن السادات نائباً له في 20 ديسمبر 1969. ووصل السادات إلى الحكم في 17 أكتوبر 1970، بنحو 90 في المائة من أصوات الاستفتاء على ترشحه للرئاسة، فيما كان تلاميذ المدارس، وأنا منهم، يضعون شارات الحداد على الزعيم الراحل.

بعد إزالة آثار العدوان، في 1973، اتجه السادات بالفعل نحو تعددية حزبية بلغت ذروة فاعليتها في حياته، ثم فُجِعَتْ أو استؤنست بعد ذلك. في 9 نوفمبر 1977 أعلن استعداده للسفر إلى إسرائيل. سافر فعلاً في 20 نوفمبر. وأبرم اتفاقية كامب ديفيد في سبتمبر 1978، ومعاهدة السلام في 26 مارس 1979.

كان السادات يعتقد أنه جاء إلى الحكم بإرادة إلهية.

فحسب القرآن الكريم، فإن الله سبحانه وتعالى يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء. ولطالما رَوَّج ترامب لإيمانه المسيحي، فحاز بذلك دعم الغالبية الساحقة للناخبين الإنجيليين.

أما صفقة القرن التي يقال إنه ينفذها لصالح إسرائيل، فأنا أفضل يا صديقي تسميتها "صفقة القرون"، بما أن العمل على إيجاد ذلك الكيان والتمكين له، بدأ من القرن التاسع عشر الميلادي.

41

هناك أيضاً المنصورة القديمة التي لم أعرفها..

المدينة التي مضى على تأسيسها 800 سنة، لم تعد كما كانت في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين.

تلك الفترة بالتحديد هي التي يعنيها رفعت السعيد، حين كتب في الجزء الأول من مذكراته: "... وكانت المدينة جميلة، أجمل كثيراً من أن تُقارن بما هي عليه الآن (يقصد تسعينيات القرن الماضي)، كانت تبدو كزهرة لوتس حملها النيل معه إلى هذا الموقع الفريد. لم أزل أستعيد عطرها الهادئ الوديح. ولم أزل أحلم بهذا الملتقى بين النيل والبحر الصغير، الذي اختفى ليحل محله شارع مليء بالضجيج والحفر. كلما قرأت أشعار علي محمود طه -ابن بلدي- أحسست، وكأنه قد نسجها وهو جالس على سور الكورنيش عند نقطة الملتقى هذه. كانت أحيائها الأرسنقراطية ونصف

الأرستقراطية تحاول التشبه بالمدن الأوروبية نظافة وأناقة. ولم أزل أذكر كشك الموسيقى في منتزه الكناني، حيث تعزف فرقة موسيقى المطافئ أحياناً مخملية، عصر كل جمعة وكل أحد، والناس يجلسون رجالاً ونساءً وأطفالاً حول الكشك في خشوع من يعرف كيف ينصت لهذه الألحان السماوية. أين ذهب كل هذا؟ وأين ذهب هؤلاء الناس؟ وكيف يمكن لمدينة وأناس أن يتقدموا مع الزمن؛ كي يتراجعوا في المحتوى إلى الخلف".

سيخبرني رفعت السعيد بنفسه ذات اتصال هاتفي، عندما كان يكتب مقالات لـ "عرب اليوم" بأن وابور الطحين الذي كانت أمي تقصده ومعها جار اتنا، كان من ممتلكات أسرته، التي بدأت نشاطها المهني بورشة ميكانيكا أسسها الأسطى محمد البيومي، وهو أبو جد رفعت السعيد، بعد أن تعلم أصول الحرفة في ورشة أسسها يهودي مصري يدعى موردوخ. ثم سأقرأ عنه بالتفصيل في مذكراته.

الغريب أن رفعت السعيد، اليساري العتيد، يؤكد في المذكرات نفسها أنه كان طالباً في مدرسة الملك الكامل الثانوية في الحسينية؛ أي في قلب المنصورة.

على أيامي، كانت المدرسة التي تحمل هذا الاسم تقع في حي جديلة في أقصى الشمال الشرقي للمدينة، ومنها حصلت على الثانوية العامة.. أما الابتدائية فحصلت عليها من مدرسة عمر بن الخطاب في الحسينية، وحصلت على الإعدادية من مدرسة "ثمرة الحياة"، وهي لا تبعد كثيراً عن مدرستي الأولى، إلا أنها كانت ذات إدارة مسيحية، وعطلاتها تشمل يومي الجمعة والأحد، من كل أسبوع، وأعياد المسلمين والأقباط.

كانت أمي تقول إن القديسة دميانة عرفت بهذا الاسم؛ لأن الناس سمعوها تصرخ "جُم يانا"، عندما رأت جنود الرومان قادمين للقبض عليها.. أمي كانت تسميها الست دميانة، تقول أنا رايحة مولد الست دميانة. وبحسب التاريخ الرسمي، فإن جميانة، أو دميانة، هي واحدة من أكثر النساء القديسات اللاتي كرمن في مصر، فقد كانت الابنة الوحيدة لماركوس حاكم منطقة البرلس والزعرانة بشمال الدلتا، وعندما علمت أن والدها قبل التبخير وتقديم القرابين لآلهة الإمبراطور دقلديانوس (284-305م) وبخته وتم تعذيبها مع العذارى الأربعين اللاتي رافقنها، لعدة أيام، قبل استشهادهن.

جُعضيض، تقول أمي إنه حين أكل منه أحدهم ولم يكن يعرف له اسماً، أحس بالشبع فقال "الجوع ضاع"، ثم تحولت إلى "الجعضيض".. يقاطعها أبي ليغير الموضوع: "هجيبيك تراييزة تذاكر عليها بدل الطبلية، وهقدم على عداد كهربا. خلاص لمبة الجاز مع السلامة. هنخليها للطوارئ بس عشان لما الكهربا تقطع. وهجيبيك دولاب تحط فيه كتبك وأوراقك. شد حيلك بقى عشان تدخل الجامعة وتبقى جورنالجي زي ما أنت عاوز".

واضح أن فخري لا يهتم سوى بأن يبرزَ حتى ولو على حساب غيره.. هو انزعجَ جدًّا من ورود اسمي في خبر باعتباري منسقًا لنشاط منتدى افتراضي. أنا عرفت يا طاهر أنه أو عز إلى الكاتب عادل نيتشه أن يعيّرني بمرضي النفسي، فكتب على الفيسبوك -من دون أن يسميني- أنني قابع في مزبليتي، ولا يمكن لأكبر أطباء العالم أن يساعدوني على الشفاء.

باهر، لا يريد التنازل عن التشبه بمحمد صلاح. فقط عبر اللحية، فاهتمامه بكرة القدم سطحي جدًّا، عكس علاء الدين الذي يشجع الأهلي بتعصب شديد، ولا يفوت فرصة لإغاظتي أنا، عمه الزملاوي، كلما تحدثنا عبر الماسنجر أو وجهًا لوجه كلما زرتهم. يقول: "يا عمي، سييك من الزمالك وشجع الأهلي عشان تعرف طعم الفرحة". لقد بلغ الأمر حد أن الشرطة احتجزته في قسم الدقي لأربعة ليال مع مراهقين آخرين، بعد مرور شهر قليل على تعافيه المبدئي من سرطان الدم؛ لأنه هتفَ مع آخرين من عمره، خلال تجمع أمام النادي الأهلي في الجزيرة، في ذكرى مذبحة بورسعيد: "أبدًا مش هننسى الشهيد".

باهر لا يعرف من لاعبي كرة القدم سوى "مو صلاح". لذلك طلب مني أن أشتري له قميص محمد صلاح، سواء عندما كان يلعب لفريق روما أو وهو يلعب لفريق ليفربول. لا يصمد يا طاهر في عمل..

لا يقرأ، رغم أنه ينام في غرفة مكتبتي العامرة بكتب في مختلف فروع المعرفة. ويرفض بإصرار أن يخلق ذقنه. هو يجاري في ذلك كثيرين في مثل عمره أو يقاربونه في العمر ومنهم علاء الدين.. لكن علاء الدين يحب العمل. يعمل حتى أثناء العام الدراسي، ويتردد على الجيم بانتظام.

سلمى، أخبرتني بأن صديقتها إياها جلبت لها عريسًا، وأنها ستقابلة قريبًا لترى إن كان مناسبًا أم لا.. انزعجت، يا طاهر، وكنت قد وضعتُ في فمي لقمة من بيتزا قالت إنها أكلت نصفها وتركت النصف الآخر لي.

قمتُ من مكاني ورفضت إكمال الأكل.

كنا في مكتبي في الوكالة.

لم يزعجني أن هناك من يرغب فعلاً في الزواج من سلمى. انزعجت من أنها أخبرتني بذلك، بعد انقضاء أكثر من عامين على طلاقنا. ستلح في طلب إلغاء بلوك الفيسبوك، لتواصل ملاحظاتها على محتوى صفحتي، وهو ما تصر على أنه أمر طبيعي جدًّا، وليس فيه ما ينبغي أن يزعجني. قالت: إن آخر لقاء حميمي جمعنا كان في 30 يناير 2016.

هي تتذكر وأنا أنسى..

هنا تذكرت صديقة على الفيسبوك، كتبت لي على الخاص عن أمارات براعتها في ترويض زوجها في السرير.. مثلاً؛ تجعله يبكي من فرط الانتشاء، ويصرخ بأعلى صوته عند بلوغه الأورجازم. كدت أقول لها إن ذلك أمرٌ معتاد، وليس فيه ما يجلب الدهشة، لكنني انتظرتُ حتى كتبت أن

الأورجازم الخاص بها يتجسّد في إغماءة لا تتجاوز نصف دقيقة، فاندَهشت، بما أنني لم أسمع بمثل ذلك من قبل. استمرّ تواصلنا الافتراضي هذا يا طاهر، متكئًا على تبادل خبرات جنسية، لنحو عام قبل أن تختفي تمامًا.

كان اسمها على الفيسبوك: "اللبوة"، ثم غيّرته إلى "الذئبة" .. من صورتها، التي قد لا تكون صورتها، يمكن تخمين أنها في الطريق إلى بلوغ الثلاثين عامًا من عمرها.

كان تواصلنا حرًا إلى حد بعيد.

43

في حلم؛ احتضنت خالي بكر وأجهشت بالبكاء يا ماهر.

كنتُ أزوره في مستشفى، لكنها بدت قاعة ملحقة بمسجد واسع. كانت زوجته هناك وأولاده، ولا أدري لماذا كانت سلمى هناك .. قال إنه يريد أن يصلي. حاول واحدٌ من طاقم رعاية أهل المكان أن يمنعه بما أنه مريض، لكن خالي تمسك بأن يفعل ما يريد، وكان له ما أراد.

في الصباح، بعد أن استيقظتُ من النوم وقبل أن أتهيأ لمغادرة البيت إلى الشغل، اتصلت أم أحمد، جارتنا سابقًا في عزبة عقل،
يا ماهر، وقالت إنني أوحشتها.

أنا اندَهشت جدًّا، فقد كنت أظن أن الأيام باعدت بيننا إلى الأبد حتى من قبل أن ترحل أُمي، بسنوات؛ فقد انتقلت أم أحمد مع زوجها إلى سكن في منية سندوب، وانقطع اتصالها بأُمي وبناس عزبة عقل. قالت عندما سألتها عن زوجها مصطفى: "تعيش أنت ... مات من شهرين، بس الله يستره اشترى بفلوسي وفلوسه بيت في عزبة عقل وكتبه باسمي، وقال عشان ولادنا إللي كل واحد فيهم في بيته ممكن يبهدلوكي ويبهدلوا بعض. ابقى عدي يا أستاذ حسين ... البيت جنب الكنيسة ولما تيجي اطلبني وهتلاقيني مستنياك يا حبيب قلبي".

حكيت ذلك لماهر، ونحن في طريقنا للحاق بجازة خالتي أم كلثوم. لاحظت شروده، قبل أن ينتبه ويقول: "خالتك طلبت إنها تدفن مع أُمي وأُمها". قلت له: "إن شاء الله تنتفذ وصيتها، إلا إذا كان ولادها لهم رأي تاني".

كان علاء الدين في المقعد الخلفي قد غلبه النوم، كما غلب داليا .. طلب مني ماهر سيجارة. هو يدخن الشيشة. لكن هذا لا يمنع أن يدخن سيجارة بين الحين والآخر، مع أن الأطباء طالبوه بالامتناع تمامًا عن التدخين، منذ أن أصيب بجلطة قبل نحو عشر سنوات نجا منها بأعجوبة .. كنا قد اقتربنا من بنها، فقلتُ له سنتوقف في كفر شكر لناكل شيئًا وندخن.

خالي بكر، اسمه في شهادة الميلاد أبو بكر، تيمناً بأبرز صحابة الرسول ﷺ.. كان أصغر من خالتي زهرة وأمي وخالتي أم كلثوم، وكان يكبر خالي محمد الذي استشهد في حرب 1973.. سنوات قليلة تفصل موت خالي بكر عن موت أمي، ومن بعدها خالتي أم كلثوم. زهرة الأكبر، سبقتهم جميعاً إلى الرحيل ودفنت في المحمودية؛ حيث عاشت أيامها الأخيرة في تلك القرية بالقرب من أخت غير شقيقة تكبرها، هي خالتي خضرة. ثلاثة من أبناء خالتي زهرة تزوجوا وأقاموا في المحمودية، ولذلك قررت أن تكون بينهم، بعدما اشتدت عليها أمراض الشيخوخة.

كان خالي بكر يعمل في تصليح بوابير الجاز، تماماً مثل زوج خالتي أم كلثوم، وعقب استشهاد خالي محمد، حصل على وظيفة بسيطة في حي غرب المنصورة، ثم سرعان ما تركها وسافر إلى السعودية؛ ليعمل سائقاً على ما أتذكر.

مكث هناك يا ماهر لنحو عشر سنوات، لكنهم صرفوه بعد ثبوت إصابته بفيروس سي. كان خلال تلك المدة قد تمكن من شراء قطعة أرض مساحتها 150 متراً في مدينة الفردوس، غرب المنصورة، وشيّد فوقها بيتاً من ثلاثة طوابق.

44

ياسين التهامي المولود في 1949 ينشد بالفصحى، وغالبية بين جمهوره المنتشر في أنحاء شتى لا تقرأ ولا تكتب، وتجد كثيرين منهم يتتبعون حفلاته هنا وهناك، ويحتفظون بتسجيلات لها؛ يستمعون إليها في الأسواق والبيوت، ويتميلون على أنغامها الصادرة من كمنجة وعود وطبول وناي.

سرادق عظيم.. لم أر له مثيلاً من قبل من حيث فخامته وامتداده، جرى العمل على إنشائه في شارع الأوقاف، المطل على شارع علي عبدالعزيز؛ حيث أسكن، لمدة أسبوع. في الليلة الموعودة التي سبقت رحيل خالتي أم كلثوم بنحو أسبوعين، اعتلى المنشد المسرح الذي يتصدره، مع فرقته، وأنشد لنحو أربع ساعات، تخللتها استراحات عدة، واختتم بتلاوة الفاتحة.

ليلة خلت تماماً من صخب النوبتشي جامع النقوط، وفتنة الرقصات شبه العاريات والتفاف السكارى والمنتشيين بالحشيش من حولهن، يا ماهر.

ماذا غنى في الليلة التي يحلف بها أهل شارع علي عبد العزيز؟ غنى القصيدة العصماء لعلي بن أبي طالب: "النفس تبكي على الدنيا وقد علمت/ أن السعادة فيها ترك ما فيها/ لا دار للمرء بعد الموت يسكنها/ إلا التي كان قبل الموت بانيها/ فإن بناها بخير طاب مسكنه/ وإن بناها بشر خاب بانيها".

كان المعلم كامل أبو كامل في صدارة صفوة جمهور تلك الليلة.. لكنه على غير عادته، لم يجرؤ على إخراج طبنجته من جنبه ليطلق دفعة من الرصاص في الهواء. وبعد انتصاف الليل بقليل رأيته وقد انخرط في حلقة الذكر، يتطوح بجسمه الضخم يميناً ويساراً. ترى هل خلع من رأسه فكرة هدم

مصحة الكوثر، ليقيم مكانها برجًا، كما أخبرني قبل نحو عامين؟ لا أدري.. لكن ما عرفته من بعض الجيران هو أنه بات مشغولاً جدًا بفكرة الترشح لعضوية مجلس النواب، بعد ما حقق ثروة لا بأس بها من التجارة السرية والعلنية في كل شيء. تتصدر صورة الرئيس واجهات المحال الكثيرة، التي يملكها أو يشارك في ملكيتها.

المناسبة التي تسمى "الفرح"، تسمى "الحظ"، في عُرف أهل عزبة عقل، وأهالي المنصورة ومحيطها، يا طاهر. كانت تحييها فرقٌ تعمل من خلال متعهد، يقع مكتبه في السكة الجديدة، على ما أذكر، ومن نجومها "سماسم" و"شفيقة" و"أحمد صقر"، وراقصة ربما كان اسمها "هاجر"؛ ولكن كنا نعرفها باسم "الخرسا"، فقد كانت بكماء.. لكن أحمد صقر الذي بات معروفًا إلى حد ما في سوق الكاسيت، كان يجعلها تتادي باسمه من فرط الانتشاء والتسلطن: "أحمد، أحمد".

هو لم يكن يراهن على جمال صوته، بقدر ما كان يعتمد على فرط حركته على المسرح، وقد أشتهر منذ السبعينيات بأدائه لأغنية "عنابي" بطريقة تفرّد بها ثم قلده كثيرون بعد ذلك، وتقوم على مط مفردة ما وتكرارها فيتيح مساحة أكبر للراقصة لتظهر مفاتها، فيتبدد بذلك أي احتمال لتسرب الضجر إلى الجمهور.

حين أتذكر ذلك؛ يقتحم عقلُ المشهد، ولكنه يظل على ضجره، من دون زيادة أو نقصان.

كان "الأكورديون" هو الآلة الموسيقية الأساسية في عمل تلك الفرق، قبل أن يزيحها "الأورج". وبمرور الوقت صار "الحظ" قليلًا، وانطفأت نجومه، من مغنيين وراقصات وموسيقيين ونوباتشية، وجمهور كان على رأسه تجار في سوق الجملة من ملوك الخضار والفاكهة. من أشهرهم سيد الحصري، الذي كان يسكن قرب السوق، ولكنه كان يتردد في عز الظهر على مسكن عشيقه له في عزبة عقل، وتحديدًا في شارع سيف الدين، بحجة مراجعة حساب البضاعة التي تجلبها منه لتبيعتها بالقطاعي.

ومن نجوم الجمهور كذلك تجار المخدرات، وعلى رأسهم آنذاك إبراهيم اللنش، الذي كان سخياً في النقوط، وكان بالتالي موضع حفاوة الجميع حتى أنه لدى حضوره مع صحبته كان يُعزف لهم السلام الجمهوري، سلام السادات، وهو أعلى مراتب التحية في تلك المناسبات، التي تحضر فيها زجاجات البيرة بكثرة مع الحشيش المرصوص على أحجرة الجوزة، المصنوعة من ثمرة جوز هند مجوّفة، يتصل بها عودٌ من البوص يقال له "غابة". لم يعد للجوزة وجود في مقاهي أيامنا هذه يا طاهر، بعدما غزتها الأراجيل ذات البرطمانات الزجاجية.

ذات شتاءٍ جاء الغريب.

هذا كان اسمه.

جاء من بورسعيد مُهجراً على الأرجح.. استأجر إحدى غرف السطح. وفي صباح ذات يوم طلب من أخي الأكبر أن يذهب معه إلى سوق الجملة حيث يعمل، وهناك تعلم أخي منه "تربيط"

الأقفاص، أي إحاطتها بأربطة من جوانب محدّدة قبل أن تَحْمَلَ إلى الحقول والبساتين؛ لترص في قلبها الخضر والفاكهة. معظمها كان يُخصَّص للبرتقال واليوسفي بالذات. ومن ثمّ كانت حرفة "التحبيش" كما كان يسميها الغريب، تروج في الخريف والشتاء.. كان في نحو الأربعين من عمره، بعينين خضراوين، وبشرة بيضاء لوّحتها الشمس. كان ينادي على أخي بلهجته البورسعيدية، ويقول له من خلف الباب: "يلا عشان نسرح". الأقفاص كانوا في السوق يسمونها "عدّيات"، القفص الواحد اسمه "عدّاية"، والثلاثة منها كانت تسمى "لّفة" بعد دمجها بوضع واحد منها طولياً في قلب آخر وكبس الثالث من أعلى. هي تُصنَع من جريد النخل، وصانعها يسمى "القفاص".

ذهبتُ معهما يا طاهر، وتعلّمتُ أنا أيضاً "التحبيش".

المبتدئ يتعلم أولاً ربط "الودان"، وهي جوانب القفص من أعلى. حبال خشنة تسمى "دوبارة"، تضمها "بكرة"، كنا نشترها بالميزان من محال في شارع العباسي، قريية من سوق الخواجات ومتحف ابن لقمان. "الودان"، هي النطق العامي للفظّة الأذان، جمع أذن، ومقاس الحبل الخاص بكل أذن هو متر واحد تقريباً، يقطع من البكرة بسكين. والحساب بالإنتاج.. أظن أن "تحبيش" قفص واحد يتسع لخمسين كيلوجراماً من البرتقال أو اليوسفي، كان يساوي ذات وقتٍ 15 قرشاً، أي إن المئة بـ15 جنيهاً.

من البيت بعزبة عقل إلى سوق الجملة، أمشي عبر شوارع جانبية عدة؛ حتى أصل إلى شارع المجاري، ومنه إلى شارع الوزير سعد الشربيني (كان محافظاً للدقهلية، من 1984 إلى 1989 وابنه عمرو قتل عندما كان يقود حرس رئيس مجلس الشعب رفعت المحجوب، لحظة اغتياله عام 1990) ثم أخترق منشية المصطفى بعد عبور شريط السكة الحديد، الذي يفصل شرق المنصورة عن غربها.

غالبًا لا أكون وحدي. فمع الوقت تكوّن فريقٌ مني ومن أخي الأكبر وأخي ماهر، ونَصِر علي، وهو من جيراننا. نصر؛ كانت أمّه تُدعى أم صبري.. صبري كان أخوه الأكبر، وانتحر كما قيل لرسوبه في الثانوية العامة، بأن ألقى نفسه في النيل من فوق كوبري طلخا.

كان "تحبيش" مئة قفص، يتطلب عمل يومٍ؛ يبدأ من السابعة صباحًا إلى السابعة مساءً، كما يتطلب سرعة لا تهمل الإتقان القائم على إحكام شد الحبل وعقدّه في النهاية بطريقة، تجعل العقدة مستعصية على الفك لأطول وقت ممكن.

اختفى الغريب ذات يوم.

ذهب فجأة كما جاء فجأة.

أظنه عاد مع من عادوا إلى مدن القناة، بعد إعادة إعمارها في أعقاب حرب 1973، وفي ظل حمى مفاوضات السلام، وانتعاش الانفتاح، الذي كان من ثمراته الأولى تحول بورسعيد إلى مدينة حرة.

ربما اختار أن يعمل في التهريب ويهجر شقاء تحببش الأقفاص، أو لعله عمل في بيع بضائع
بور سعيد وشرائها.

* "مساء الخير يا دكتورة".

- "مساء النور يا أستاذ حسين.. إزيك؟".

* "الحمد لله".

- هل يستحق وجود لاجئين من قومية الأورومو في مصر مقالاً لـ "عرب اليوم"؟

* "أنا ساكن في منطقة عرب المعادي، وألاحظ وجودهم فيها بكثافة، وكلهم من فئة الشباب.. ولهم مقاهٍ ومطاعم ومحلات حلالة وحياسة تخصهم.

- هل لوجودهم أبعاد سياسية؟ هما مش أورومو بس.. هم من كافة القوميات، وأنا بقالي 7 سنين بعتمد عليهم في مساعدتي في البيت. كان عندي واحد تيجراي، ودلوقت واحد من قومية ديسالين.

* "تمام".

- "ما مدى قانونية وجودهم هنا؟".

- "مصر بالنسبة لهم بلد آمن ومحطة للهجرة.. هما ببيجوا برًا من السودان، وبيروحوا طالبين لجوء من الأمم المتحدة، ويقعدوا يستنوا الفرج لحد ما بيجي الدور.. الولد اللي كان عندي راح كندا".

* كيف يدخلون مصر؟ أقصد، ما الوضع الذي على أساسه يُسمح لهم بالدخول؟".

- "تهريب من الحدود، أو على المراكب من السودان. هسأل في النقطة دي وأقولك".

* "هم جيران في السكن، ويتحركون بحرية تامة، وهناك كما قلتُ مقاهٍ ومحلات تخصهم وهدهم، ويدفعون إيجارات أعلى من التي يدفعها المصريون، فلو أنهم دخلوا بشكل غير شرعي، فلماذا لا يتم إلقاء القبض عليهم وترحيلهم؟".

- "لأن الإيجار شريك والبيت هو محطة لكثيرين، يعودون إليه يوم السبت ويغادرون الاثنين صباحًا لأعمالهم".

* "تمام".

- "دي نقطة قوة لمصر على المستوى الأفريقي، وكل دول شمال أفريقيا بتعمل كده".

* "لماذا تقبل السلطات بوجودهم الظاهر... إزاي نقطة قوة؟".

- "باعتبارها ملجأً وملاذًا للأفارقة. هما مضايقتينكم؟".

* "لا، أبدأً، بس كنت عالوز أفهم سند وجودهم بكثرة".

- "على فكرة، أنا بعد ما مشي الواد الأولاني، جبت مصريين وقلت أولى.. سرقوني، الأفارقة جواهرم سلام من نوع لم نألفه نحن".

* "هم بالفعل لطفاء ومسالمون".

- "الواد إللي عندي دلوقت اتعرف على واحدة هنا هيتجوزها ويرجعوا أثيوبيا".

* "ألف مبرووووك".

- "ههههه، الله يبارك فيك، وعمار يا مصر يا أم الدنيا.. صحيح عمار يا مصر.. صراحة بتقدم نموذج في الاحتواء والصهر لا مسبوق ولا ملحوق. اكتب أنت بقى المقال أديني قلت لك كل حاجة".

تلك محادثة أجريتها عبر الماسنجر يا طاهر مع الدكتورة تهاني جميل، الباحثة في مركز الدراسات الأفريقية، في إطار تحقيق صحفي أجهّز له.

كان السودانيون من الشمال والجنوب هم الظاهرون في طائفة الأفارقة الذين يتخذون من مصر محطة للهجرة، حتى تكثف حضور الأثيوبيين بعد بروز أزمة سد النهضة.

الدكتورة تهاني أخبرتني لاحقاً، يا طاهر، أن الشاب الأثيوبي يتم تسهيل دخوله مصر عبر السودان مقابل 600 دولار. قالت أيضاً إن بعضهم يخرج من بلده لأسباب سياسية، ويلجأون إلى مصر بالذات؛ لأنهم يعتبرونها آمنة، بقدر كاف؛ لتكون منطلقهم نحو الهجرة إلى أوروبا وأمريكا وأستراليا.

وبالمناسبة أنا قلت لنفسى يا طاهر، وأنا أراجع هذه المعلومات: ربما كانت أصول جدي توفيق من تلك القومية، قومية الأورومو.

عقل أيضاً لا أعرف عنه شيئاً.

لا أعرف له أسرة ولا بيتاً.

لا أعرف حتى اسمه.

أنا أطلقت عليه هذا الاسم.

أنا حتى لست متأكدًا من أنه من عربة عقل.

47

"قف مكانك" ..

قالها السادات للطالب عبد المنعم أبو الفتوح ..

سمعتها في حينه على الهواء مباشرة.

كان ذلك خلال لقاء عقده السادات مع طلاب جامعة القاهرة، على ما أذكر.

حين استعدتها في 2018 ذكرتني بـ "اثبت محللك"، التي كنت أسمعها وأنا في الجيش .. قد يعقبها "ارقد"، "ازحف"، "تسعة استعد"، حسب مايقضيه الموقف إزاء شخص ارتكب ذنبًا، أو حتى يشتبه في أنه ارتكبه، أو ربما ينوي ارتكابه.

أبو الفتوح قال للسادات يا طاهر: "إن من حولك ينافقونك". وقال له أيضًا: "إن الشيخ محمد الغزالي موقف عن الخطابة"، وما معناه أن هذا لا يجوز.

سيقال ذات يوم إن الغزالي الذي تزعم المطالبة بمنع رواية "أولاد حارتنا"، كان ممن شجعوا - وإن في شكل غير مباشر - في إقدام أصوليين على قتل فرج فودة، بعد أن جمعتهم مناظرة شهيرة خلال إحدى دورات معرض القاهرة للكتاب .. ومنع "أولاد حارتنا" ارتبط يا طاهر بتكفير نجيب محفوظ، ومن ثم محاولة قتله.

اشتغل السادات بالسياسة طويلاً، ومارس كثيرًا من المهن، لكنه - يا صديقي - لم يتمكن من خلع عباءة العسكري، حقيقة ومجازًا.

في المشهد الأخير، كان يزهو بحلة عسكرية على الطراز النازي، قيل إنها صنعت خصيصًا له في لندن، وقيل كذلك إنه رفض ارتداء القميص الواقى من الرصاص تحتها؛ حتى لا يتأثر اتساقها مع قوامه الرشيق سلبيًا، وبالتالي تختل أناقته المعهودة.

كانت محبوكة تمامًا على جسده النحيل، ويبدو أن مصممها لم يعمل حساب حيز القميص الواقى، بما أنها لشخص مهدد بالقتل.

هللوا لمقتله .. من اليمين واليسار على حد سواء .. في مثل ذلك تجتمع الطائفتان يا صديقي.

قال بعضهم إنه خان القضية، وبالتالي يستحق القتل.

وقال آخرون إنه لا يختلف عن فرعون موسى، الذي قال: "أنا ربكم الأعلى"، فاستحق القتل.

48

صرتُ أتفادى مشاهدة القنوات الإخبارية قدر المستطاع يا دكتور عادل.

أكثرتُ لفترة بعد خروجي من الكوثر من مشاهدة القنوات الكوميديية. ثم أعدتُ اكتشاف "ناشيونال جيوغرافيك" و"الجزيرة الوثائقية". ومن وقت إلى آخر، أشاهد ما تعرضه "إم بي سي 2" من أفلام، غالبيتها من إنتاج هوليوود.. مؤخرًا شاهدتُ فيلم "حب ورحمة". هو - كما عرفتُ عبر جوجل بعد ذلك - فيلم سيرة ذاتية، يسلم الضوء على حياة الموسيقي براين ويلسون. يسرد الفيلم فترتين محددتين في حياة ويلسون: فترة الشباب وفترة منتصف العمر، ودور كل من زوجته "ميليندا ليدبيتر" وطبيبته "يوجين لاندي" في تلك الحياة.

"لاندي" هذا كاد يدفع مريضه إلى الانتحار.. كان يحاصره تمامًا، يا عادل بعدما شخّص حالته على أنها فصام ورهاب وارتياح وميول انتحارية.

كان يردد: "إنني أساعد رجلًا عظيمًا ليتعلم كيف يعيش ثانية".

كان ينهره بقسوة أمام الناس.

صرخ في وجهه ذات مرة: "هناك فرق بين أن تكون جائعًا، وأن تعتقد أنك جائع".

كان هو الوصي القانوني عليه.. حين التقى ويلسون "ميليندا" للمرة الأولى، لاحظتُ أن "لاندي" يراقبه عن كثب، فسألته: "هل هو صديقك؟" قال: "هو حارسي الشخصي... تقريبًا هو حارسي الشخصي"، ثم ترك لها بطاقة كتب فيها أنه "وحيدٌ ومحبط".

نمتُ بعد أن شاهدتُ الفيلم، ورأيتني يا عادل أفتش بين أكوام من الملابس عن قطعة معينة ولا أجدها.. أسأل أمي، أسأل أبي، أسأل إخوتي.. أخي الأكبر أسبه ويسبني. نتعارك. يتكرر ذلك ولا أنتصر عليه أبدًا في عرا كنا الجسدي.

لم أتمكن من طرحه أرضًا، لا في الحلم ولا في الحقيقة، حتى بعد أن أصبح مثل الهيكل العظمي.

في الأخير أسير عاريًا، بلا سبب، وكأني مرغم على ذلك وحسب.

49

أخي حسّان، هاتّفني وأنا في الطريق إلى جنازة خالتي يا سلمى.. قال إنه كان يتوقع أن أمر عليه في عين شمس هو وزينب ليتمكنا من حضور الجنازة.. قلتُ له إن ذلك كان سيعطلنا جميعًا عن الوصول إلى عزبة عقل في الوقت المناسب، قال: البقية في حياتك.

براين ويلسون نجم فرقة "بيتش بويز"، عبقرى التأليف الموسيقي، بات في منتصف العمر بلا سند بعدما تقاوم مرضه النفسي يا عادل.. لديه ابنتان محظور عليه رؤيتهما. حين وجد السند في "ميليندا"، اشتد حصار الطبيب له، فاضطر أن يقول لها بعد أن قضيا وقتًا قصيرًا بلا مراقبة: "ارحلي الآن، لكن لا تهجريني".

ما الذي يمكن توقعه حين تقع امرأة في السادسة والثلاثين من عمرها في الحب؟ أقصد حين يحدث ذلك يا طاهر للمرة الأولى، وهي في هذا العمر.

عن نفسي بالتأكيد سأشعر بالخطر، إذا كنت وأنا في الخامسة والخمسين الطرف الثاني في مثل تلك العلاقة؛ فالخبرة في مثل تلك المواقف؛ هي مصدر اطمئنان بالنسبة إلى كهل مثلي، مقارنة بمعدومة الخبرة.

وهل الحب خبرة؟ بالتأكيد هو كذلك، مع أن أعراضه هي نفسها تقريبًا في كل مرة، تشبه أعراض مرض ما يمكن أن تتكرر الإصابة به، في أي مرحلة من مراحل العمر. لكن مع التكرار تتولد مناعة - لو جازَ التعبير - تحاصر تلك الأعراض؛ بحيث يمكن تحمل ما قد تسببه من ألم، أو حتى على الأقل تتيح التكيف معها على نحو ناضج.

لم نتقابل وجهًا لوجه بعد.. أقصد أننا لم نتقابل بعد على النحو التقليدي. تقابلنا عبر الهاتف وعبر الفيسبوك والواتس. لا تضع صورة شخصية لها. تقول إنها لا تحب صورها. أرسلت لي صورة لها على الخاص. غير محجبة. مع الوقت عرفت يا طاهر أن ارتباطها جسديًا بزوجها، لم يدم لأكثر من شهر واحد.

تزوجته كما تقول من دون أن تحبه.. قالت إنه أيضًا لم يتزوجها عن حب، ولكن تحت وطأة رغبته في أن يدحض حجة زوجته الأولى التي خلعتَه؛ إذ قالت للقاضي: "مبيعرفش". خلال ذلك الشهر حملت. هي الآن مطلقة تعيش مع طفل في السادسة من عمره. بدت لي أمًّا لم تفقدها الأمومة عذريتها كامرأة. تبدو لي امرأة عذراء، ليست لها خبرات عاطفية يعتد بها. ومما عرفته منها أيضًا هو أنها تتعاطى أدوية مضادة للاكتئاب، من دون استشارة طبيب.

50

دواؤك يا حسين امرأة.. ربما لم تكن بين من عرفتَ حتى الآن. وربما تعود إليك إحداهن فتكون هي الدواء، أو تبلغ امرأة لم تعرفها من قبل فتكون هي. تكون قبل فوات الأوان.

هل قال الدكتور عادل رأفت لي هذا الكلام، أم قلته أنا لنفسي؟
لا أعرف والله يا ظاهر.. لكنني أتذكر أن ويلسون قال لحبيبتة: "يغلبني النعاسُ أينما ذهبتُ وأشعر دائماً بالغثيان". هي أصرت على أن تتقذه ونجحت في ذلك، فتزوجا وأنجبا خمسة أطفال!

سأعد لنفسي اليوم طبق أرز بالبطاطس، على طريقة أمي.

نعم على طريقتها، فأنا لم أعرف أحدًا كان يعد تلك الوجبة سواها. تقطع البطاطس في شكل مكعبات صغيرة، ثم تحمر بصلة في الزيت وتضيف إليها تلك المكعبات مع الأرز المغسول.. كانت أيضًا تصنع المحشي من ورق اللفت. تسميه "الخف". قد أسأل أخي ماهر لأتأكد. محشي ناعم ولذيذ. أيضًا القلقاس. دعاء لا تحبه، وبالتالي لم تطبخه أبدًا. تقول إن لزوجته بعد تقطيعه تقرفها. كانت أمي تطبخه لي كلما زرتها. قلت ذلك لسلمي، فكانت تطبخ لي القلقاس مع السلق، بالطريقة ذاتها التي كانت أمي تفضلها.

أما خالتي أم كلثوم، فكانت أحب تناول كشري العدس الأصفر من صنعها. لمَّا ذاع صيت الشيخ كشك: قالت خالتي لي: "الراجل ده عنيف وصعب يتحب". كان صوته يصل إلينا من شقة في الدور الثالث في البيت الذي تسكن فيه خالتي.. كان يسكنها موظف في وزارة الداخلية. وظيفته شيخ حارة، ولا أعرف تحديدًا ما الذي تعنيه. كان يعيش مع زوجته وأربعة أولاد وبنات وحيدة. الولد الأصغر كان في بداية المرحلة الثانوية، وفجأة بات مولعًا بتشغيل شرائط الشيخ كشك، بعدما اشتهر له شريط يقول فيه عن أم كلثوم: "امرأة في السبعين من عمرها وتقول خدني في حنانك خدني.. يا شيخة خدك ربنا". وهو أيضًا قال عن السادات: "إن الذين قالوا إن 99 في المائة من أوراق القضية في يد أمريكا قد ضلوا ضلالًا بعيدًا. الأوراق كلها في يد من لا يغفل ولا ينام". وقال عن عبد الناصر: "إنه خالِدٌ في جهنم إن شاء الله"، فيرد مستمعوه: "الله يفتح عليك".

في هذا اليوم، أذاع التلفزيون لقاء الرئيس المؤمن مع مرشد الإخوان. قال: "أنا رئيس مسلم لدولة إسلامية يعيش فيها المسلمون إلى جانب المسيحيين. الكلام ده بقوله لشنودة: إحنا بنبني كنايس من غير ما تطلب أو تدفع. الرئيس المسلم للدولة المسلمة لا يقبل المساس بأي مواطن عنده مسيحي أو يهودي.. قرأنا قال لنا كده". ثم توجه بالكلام إلى المرشد: "تعلم أن يدي كانت في يد البنا الله يرحمه.. لم يتعرض لكم أحد ولم أقفل مجلتكم، وإنما أرسلت لوزير الداخلية ليقول لك عيب". وقال المرشد: "بين الإسلام والشيوعية عداً ولا يمكن أن يسيرا في ركب واحد. السفارة البريطانية دعنتي لزيارة لندن وأنا عرضت الدعوة على وزير الداخلية. أنا لا أتأمر على الدولة. أسأل محافظ أسبوط. أسأل شيخ الأزهر. أنت اتهمتني ظلمًا. أرفع أمري إلى الله الذي دعوته من قبل أن يديم حكمك لأطول وقت ممكن؛ لأننا نتمتع فيه بحريتنا".

رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة، سمعناه أيضًا يقول للرئيس: "أنت وحدك ستسأل أمام الله. أنا كشاب مش عارف القيادة السياسية عاوزاني أكون إيه؟". فيرد عليه: "شوف يا بني، من سنة 71 وإحنا دولة العلم والإيمان". فيواصل طالب الطب الإخواني: "السلوك متناقض مع هذا الكلام. الغزالي ممنوع من الخطابة. اتحنط في وزارة الأوقاف فساب البلد. فيه علماء ينافقون سيادتك". هنا هتف الرئيس: "قف. أنا لا أسمح أبدًا. مفيش حد بينافق وأنا لا أقبل النفاق. للبلاد أمن وإجراءات.

استغلال الدين لا تسمح به الدولة. فف مكانك. اتعلموا الأدب في مخاطبة الناس. دي مش صراحة دي وقاحة. اكتب ذلك في شكوى. لما واحد يفرض زعامة عن طريق الدين، يبقى بيعمل فتنة طائفية. محدش بينافقني ولو لا هذا ما كنت تقف أمامي. الزموا حدود الأدب. الزم مكانك وحدودك. من اليوم يا أولادي يجب أن نعطي الاحترام للقيم والمعاني. الدين مقالش إنه يقول هذا الكلام أمام رئيس العيلة رئيس البلد. فرد لا حوكم ولا سُجن ولا شُرِّد، ومع ذلك بيستغل الدين لإحداث فتنة".

51

"شوارعة" كانت امرأة تقيم مع ثلاث بنات في عشة من الصفيح بنتَّها، في فراغ يفصل بين بيتين. استيقظ الناس ذات فجر على صراخها ورأوا النار تلتهمها وهي تجري بعيداً عن العشة وبناتها، يركضن خلفها على أمل أن يجدن من يساعدهن في إنقاذها. في الأخير نقلت إلى المستشفى وهناك فاضت روحها.. قيل إن عاملاً في ورشة دوكو سيارات هو من قتلها حرقاً لأنها تصدت لمحاولته النوم معها ومع بناتها، وقيل إنه ارتكب فعلته انتقاماً من المرأة نفسها؛ لأنها تلكأت في دفع مبلغ كان يحتفظ به لديها على سبيل الأمانة.

فاكر يا ماهر الحادثة دي؟ قال: أيوه فاكر. كنا قد أيقظنا علاء الدين وداليا، بعد أن ركنت السيارة على الجانب الأيمن للطريق في كفر شكر. عبرنا إلى الجانب الآخر واتجهنا إلى محل كشري.. لن يكون هناك مجال لتناول الغداء في المنصورة، سنشغل بالجنازة والعزاء. بعد الكشري، جلسنا في مقهى قريب. طلبت قهوة لي ولماهر. طلبت أيضاً شيشة لي وله. قال علاء الدين إنه يريد أن يشرب عصير قصب من محل مجاور لمحل الكشري.

ستمر الجنازة بمجمع الإيمان بعزبة عقل. أنشئ في بدايات السداح مداح بتعبير أحمد بهاء الدين- في الطب الرأسمالي، والذي يميل جانب كبير منه إلى اتخاذ طابع ديني إسلامي، في معظم الحالات، ومسيحي في قليل منها. كان مجمع الإيمان الشرارة التي أطلقت بيزنس الخدمات الخيرية. كان على أيامي محدود النشاط.. هو الآن صرح كبير في شارع الوزير سعد الشربيني، وقام على مساحة من الأرض، كان يفترض أنها ضمن حرم السكة الحديد الميري.

عزبة عقل؛ لا بد أنها كانت يا ماهر حقولاً في وقت ما. أظن أنها كانت جزءاً من ريف بين ضفتي البحر الصغير، الذي لم أراه وقت أن كان بحراً، ولكنني رأيته حين أصبح واحداً من أوسع الشوارع المرصوفة في المدينة، من دون أن يفقد اسمه على الأقل لدى الناس.

الحقول التي لم أرها تحولت إلى أحياء سكنية، يبدأ كل منها بمفردة عزبة ما يشير إلى ماضيها الريفية.. عزبة عقل، عزبة عبد الرازق، عزبة الشال. هذه أسماء لأشخاص حقيقيين، كانوا يا طاهر على الأرجح يمتلكون مئات الأفدنة، ربما ورثوها من أسلاف كانوا يسكنون جزيرة الورد، قبل أن يصبح اسمها المنصورة، تيمناً بالنصر على حملة صليبية قادها ملك فرنسا لويس التاسع، وانتهت بأسره وإيداعه دار بن لقمان، قبل أن تفقديه زوجته بمبلغ كبير من المال دفع جزء منه مقدماً، على أن يستكمل لاحقاً، لكنه لم يستكمل أبداً.

دائمًا كنتُ أمر من أمام مجمع الإيمان، ثم أعبّر قضبان القطار الميري، مخترقًا منشية المصطفى، باعتبار أن ذلك طريق مختصر للوصول إلى سوق الجملة. وذهبت مع أمي أكثر من مرة يا ماهر عبر الطريق نفسه إلى السلخانة. هل تذكرها؟ كنت أراقب الذبح والسلخ، فيما تنتظر هي ورود "السقط" إلى "طشوت" باعة حلويات وفواكه اللحوم.. نشترى الكرشة والفضة والطحال والكوارع. كانت تحدثني في الطريق عن قريب لها، يمتلك ورشة ميكانيكي سيارات وبيتًا في هذا الشارع. أظن أنني حدثتك عنه أيضًا. لكن لا أذكر أننا زرناه أو زارنا أبدًا. كان ابن أحد أشقائها من أبيها على ما أذكر. حدث أن ذهبت إلى الشارع نفسه، الذي عرفت مؤخرًا أن فؤاد حجازي كان يقيم فيه، لأدلف إلى عزبة الشحاتين؛ لأشتري لأبي الأفيون من أم أحمد.

في بدايته يقع ميدان الشيخ حسنين، الذي يفضي من الناحية الأخرى إلى شارع العباسي، الذي يقع في نهايته المسرح القومي ومبنى مديرية الأمن وقسم أول المنصورة.

في السوق، سوق الجملة، كنا نرى إبراهيم كيوان ورضا حامد وسطوحي (حارس مرمى) وسعد سليط وعزت درويش. نادي المنصورة الرياضي. نادي الشعب حتى 1971. شعاره الشمس والشعلة ودار ابن لقمان. ومؤخرًا انطلقت حملة شعبية لدعم النادي؛ حتى يصعد مجددًا إلى الدوري الممتاز. لطالما صدر يا علاء لاعبين إلى أندية القمة، ومنهم: عبد الظاهر السقا وتامر عبد الحميد وياسر ريان ووليد صلاح عبد اللطيف وعمرو زكي وإبراهيم صلاح وأحمد علي ومحمود أبو السعود. نادي المنصورة أو "الإعصار البرتقالي"، كما يطلق عليه مشجعوه، تأسس عام 1932 وشارك للمرة الأولى في الدوري الممتاز في موسم 1973/1974. احتل المركز الثالث في موسم 75/1976.. خرج منه سطوحي كابتن منتخب مصر سابقًا، وخالد الأمشاطي أول لاعب يمثل مصر في بطولتين لكأس العالم للشباب والمنتخب الأولمبي، ثم المنتخب الوطني الأول، وثروت فرج، والهادي، وبدوي حمودة، وحمامة، والبابلي، ورضا سمك.. معهم كنا نهتف: يا محني ديل العصفورة بلدنا هي المنصورة.

لم يكن سوق الجملة في ذلك الوقت محاصرًا بكتلة سكنية عظيمة، كما هو الحال في السنوات الأخيرة، ومن هنا يجري العمل حاليًا لنقله إلى مكان آخر، يا ماهر، يقال إنه قريب من مصيف جمصة، ومساحته ضعف مساحة السوق الحالي الذي يزيد عمره عن نصف قرن. ومن ثم سيتضاعف عدد المحلات التي سيضمها ليصل إلى 400 محل.

52

عرفت يا صديقي أن رفعت السعيد أعتقل في 1978؛ لأنه كتب مقالًا بعنوان "يا زوجات رؤساء الجمهورية اتحدن". وعثرتُ في الفيسبوك على مجموعة باسم "حزب مصر السادات"، فأرسلت طلبًا للانضمام إليها، وبعد أيام من الموافقة السريعة عليه، جاءني إخطار بتغيير اسمها إلى "السادات كبير مصر". تنصدر الصفحة صورة السادات منتصبًا بزيه العسكري، وخلفه النصب التذكاري للجندي المجهول.. في البداية وجدت أن الصفحة مخصصة لصور السادات في مختلف مراحل عمره، ثم بعد تغيير اسمها كتب المسؤول عنها: "الصفحة تحيي الساداتيين الجدد.. فضلًا

ورجاءً، ممنوع نشر موضوعات لا تتعلق بالزعيم السادات. يجب تحري الدقة في الكتابة وتلافي الأخطاء الإملائية، مع ضرورة أن يتبادل الجميع الاحترام".

ومن بين التعليقات قرأت لعضو يدعى محمد علي عقل: "السادات خائن مصر وبائع فلسطين ومنبوذ الأمة العربية"، وقرأت تعليقاً لعضو آخر، جاء فيه أن أحمد أبو الغيط الأمين العام لجامعة الدول العربية صرح مؤخراً بأن السادات هو أعظم من حكم مصر. وعلق آخر بالقول إنه عندما بلغ عرفات نبأ اغتيال السادات قال: "نقبل اليد التي أطلقت الزناد"، ثم وقع بعدها بسنوات قليلة اتفاقية أوسلو، التي أعطته أقل بكثير مما أتى به السادات للفلسطينيين ورفضوه.

53

فاكر يا ماهر الحرامي إللي كسر الحيطه وسرق الكاسيت الناشوينال بتاع ستي إللي اشترته من دية خالي. هي كانت في الحمام المشترك وقتها. كانت تسكن في إحدى حجرات السطوح، ولا أذكر أين كانت تسكن قبل ذلك. الحرامي كان يسكن في حجرة طينية تجاور حجرتها، فنقب الحائط وسرق الكاسيت واختفى.. كان لها زوج، كنا نناديه بـ"عم سيد".

كان قد اختفى هو أيضاً قبل تلك الواقعة، التي حدثت ربما في عام 1975. قالت أمي: هو من أصل باكستاني ولا نعرف له أهلاً أو معارف. كان يصنع في البيت بروايز ويبيعهها إلى أن أصيب بجلطة، أدت إلى شلل ذراعه الأيمن. وكانت جدتي تدبر معاشها من بيع الترمس والفول النبات، إلى أن صرفت نصيبها من الدية، وتقرر تخصيص معاش لها وشقة في مدينة الفردوس في غرب المنصورة. حي سكني جديد انتقلت إليه السلخانة، وأصبح اسمها المجرر الآلي، فبات الناس يسمون ذلك الحي "المجرر". ترك خالي بكر سكنه المتواضع في شارع الشبراوي، وعاش هو وزوجته وأولاده مع جدتي في الشقة، التي كانت في الطابق الأرضي لعمارة تتوسط مشروعاً للإسكان الشعبي.

تعليقاً على مقولة إن استطلاعاً للرأي أثبت أن غالبية الإسرائيليين نادمون على "التقريط" في سيناء، والتي جاءت في سياق الاحتفال بمئوية مولد السادات، كتبتُ يا طاهر: شكراً لاتفاقية استعدنا بها سيناء، بعدما ثبت أن الحرب لم تفلح في استعادتها كلها، وصدق من قال إنه لولا حرب 73 ومن بعدها التفاوض، لكانت سيناء لا تزال محتلة.

الأمر ذكّرني يا طاهر بفؤاد حجازي؛ صاحب أهم مشروع نشر مستقل.. في سيرته أنه تعرض في مصر للسجن لعدة سنوات دون تهمة. شارك في حرب 1967 ووقع في الأسر، ولاحقاً كتب تلك التجربة في روايته "الأسرى يقيمون المتاريس" التي واجه صعوبات جمة ليتمكن من نشرها. قبل وفاته بقليل، نشرت "عرب اليوم" قصة له كما نشرت حواراً معه، عبر تواصل الكاتيبين فرج مجاهد عبد الوهاب وإبراهيم حمزة، وهما من أوفى تلاميذه في المنصورة يا طاهر.

كان أحمد زكي قد صار وجهًا معروفًا جدًا من خلال مسرحية "مدرسة المشاعبين" التي كان التلفزيون يذيعها كثيرًا.. سيجيد في تجسيد شخصية الرئيس في "أيام السادات". كانت خالتي تقول: "الواد ده مظلوم وسط العيال دول، بس أنا حاسة أنه هيتفوق عليهم في يوم من الأيام". في 1979 قدم "الأيام" للتلفزيون مجسدًا شخصية طه حسين. خالتي قالت: "السادات جاب النصر، وبكده دم أخويا مراحتش هدر، وأدينا أهو في فضل ونعمة بسببه".

قدم أحمد زكي أيضًا "العيال كبرت" في 1979.. عرفناه من التلفزيون قبل أن نعرفه من السينما. التلفزيون نقل للناس معجزة على الهواء مباشرة: إطلاق رصاص وقنابل على المنصة؛ حيث كان السادات يتابع العرض العسكري. زاد التصاق الناس بالتلفزيون، إلى أن بثّ الخبر، ثم اصطفوا بعد بضعة أيام ليشاهدوا الجنازة الرسمية على الهواء مباشرة.

كان ذلك يا طاهر هو مشهد الذروة بعد مشاهد مثيرة كان السادات بطلها، منها مشهده وهو يؤكد استعداده للسفر إلى إسرائيل، ومشهده وهو يتجادل مع الطالب عبد المنعم أبو الفتوح، وهو يصرخ فيه: "أنا علمتكم الصراحة معلمتكوش الوقاحة"، ومشهد مناظرته مع مرشد الإخوان عمر التلمساني، ومشهده مع همت مصطفى، وهو بزى الفلاح يحتفل بعيد ميلاده في قرية ميت أبو الكوم، مخاطبًا إياها بـ: "يا همت يا بنتي"، فيما الناس يتهامسون بأنه تزوجها سرًا على زوجته فائقة الجمال، والملقبة بسيدة مصر الأولى.

في تلك الأثناء احتل الاتحاد السوڤيتي أفغانستان، واشتعلت حمى "الجهاد ضد الكفرة" بدعم أمريكي.

ولدت خالتي في 1939. وكان زوجها يكبرها بعام واحد، يا سلمى. كان عليه أن يموت بعد أن ماتت جرفته. كان جالسًا يشرب الشاي، وفجأة بكى، إذ شعر بنار تشتعل في صدره. حضرت أمي تلك الواقعة وحكتها طبعًا. ربّيت خالتي على كتفه ودلكت صدره، وهي تتمم بآيات من القرآن وتقول له: "صلي ع النبي يا محمود.. أنت زي الفل"، ثم لاحظت أن النههة انقطعت لتتبعها شهقات متتالية، انتهت بخروج السر الإلهي.

54

في صباح يوم عيد ميلادي الـ 18، أهدتني سبها سلسلة اشترتها من مصروفها، ومعها رسالة: "هفضل طول عمري أحبك".

انهمرت على باهر هدايا الأهل والأصدقاء في عيد ميلاده الـ 18.. أظن أنه قابل في صباح ذلك اليوم حبيبته وقدمت له هدية. في المساء احتقلنا بحضور حنان وحنين وأحفادي؛ أدهم وعلياء وسالي ورضوى.

صخب الحفلة؛ حفلة عيد ميلاد باهر الـ 18 اعتمد على أغاني المهرجانات، ولا أعرف سبباً لتعلقه بها هو وأصحابه. أحد أبطال تلك الظاهرة يدعى السادات.. سمعت اسمه أكثر من مرة في معمة الصخب تلك، ولاحظت أن حفيدي أدهم الذي بلغ أخيراً الخامسة من عمره يتعلق بها أيضاً، ويردد كلماتها ويرقص على إيقاعاتها. يقلد خاله على الأرجح. جرت الحفلة في غرفة باهر التي هي في الأصل مخصصة لمكتبتي. وضعنا فيها سريرًا للطوارئ، فبات باهر يفضل النوم فيها ليكون قريباً من الكومبيوتر والسماعتين الضخمتين الموصولتين به. حين بدأ أصحابه يتوافدون لتنهئته بعيد ميلاده، طلب من حنان وحنين أن تغادرا الصالة إلى أن يكتمل دخولهم غرفته.. أنا اعترضت وقلت له لا مشكلة مطلقاً في أن يرى أصحابك أختيك ويسلموا عليهما، فمعظمهم من جيراننا ونشأت البنتان بينهم.. نظرت دعاء إليهما بما معناه أن باهر معه حق.

أظن أن باهر قرر ذلك لأن بين المهنيين أشخاصاً ليسوا من جيراننا، وكانوا يزورون شقتنا للمرة الأولى. ومع ذلك وجددتني مصرًا - مع نفسي- على أنه لا مشكلة في أن يسلم هؤلاء الضيوف على أهل البيت جميعاً، فهذا الحجب ليس عادلاً يا طاهر.. بات موجوداً حتى في أوساط بعض المتقنين، يا صديقي بتأثير من تغلغل التدين الشكلي، ومن ثم تجد أنه يضع حاجزاً أمام صدق ما يدعون من استنارة.

حتى المهرجانات تلك، تغلب عليها الذكورية، فلم أسمع عن مطربات يشاركن فيها، وجمهور حفلاتها تجد أنه أيضاً من الرجال دون النساء.

55

الطاهر: "ربنا يخليك يا حسين. لسه واصل من الساحل الذهبي. الجماعة في البيت نيام. قلت أشوف الفيسبوك بعد غياب. أراك يا صديقي تقرد مساحة ما لوهم الجوائز الأدبية؛ رعاك الله. لما رأيت كتابات لأصدقاء آخرين، بدا وكأنهم قد قبلوا خفة الفيسبوك تحت مسمى الحكمة كعبارة كثيفة! إننا نضع للغرق أحياناً مسميات تجعل منه أمراً فائتاً. الحنين إلى مصر يأخذ بنواصي روعي هذه الأيام. لي شخص عزيز مثل أصلان، لم يعد له وجود. هل أغلق مكتب "عرب اليوم؟".

أنا: "ليس بعد".

56

كنا قد تكلمنا غير مرة عن انشغالي بهوية من تحمل العزبة اسمه.

اسمه عباس بك عقل. تزوج مرتين. أنجب من زوجته الأولى ولدين وبننتين. وأنجب من زوجته الثانية ثلاثة أولاد وبننتين. الخمسة الذين أنجبهم من زوجته الثانية لا يزالون على قيد الحياة. تقول

سلمى ذلك نقلاً عن حفيد له يقيم في ميلانو، وتضيف: "كان يمتلك آلاف الأفدنة ومات وهو لا يمتلك أي شيء. التأميم استولى على الكثير وما تبقى التهمه سوء التدبير".

عيد ميلادي الثامن عشر، أحياء عمر خورشيد!

هو كان قد مات في حادث وعمره 37 سنة.. لكنني أصر على أنه هو الذي أحياء حفلة عيد ميلادي، بما أن فقرتها الأساسية اعتمدت على شريط كاسيت لعزفه عددًا من أشهر أغنيات أم كلثوم. وعلى فكرة، قيل إن جدي اختار لخالتي اسم أم كلثوم؛ لأنه كان يعشق صوت كوكب الشرق. كان يندن أغانيها؛ القديمة منها والجديد: "الحب كله وصال ودلال ورضا وخصام". تلك الأغنية التي شددت بها على خشبة مسرح البلدية أو المسرح القومي بالمنصورة في السابع من مايو 1960. هو أقدم تياترو خارج القاهرة، صُمم على الطراز الإيطالي، وهو مغلق تمامًا منذ عام 2005. لكن جناحًا آخر في العائلة يصر على أنه اختار لها ذلك الاسم؛ تيمناً باسم إحدى بنات الرسول.

أحياء عمر خورشيد حقيقةً -لا مجازًا - حفلة في البيت الأبيض بمناسبة توقيع اتفاقية السلام.. قيل لم يكن يستطيع أن يرفض طلبًا لرئيس الدولة. وبسبب هذه الرحلة امتنعت الدول العربية عن التعامل معه. أما الطامة الكبرى فتمثلت في ما أشيع عن أن إحدى بنات السادات وقعت في هواه.

وبالتالي قيل إن الحادث الذي أودى بحياته، وهو في عز شبابه وذروة نجاحه، كان من تدبير منظمة فلسطينية على خلفية رفض السلام مع إسرائيل، وقيل كذلك إنه وقع بتدبير سياسي مصري على خلفية ما تردد عن إغوائه بنت الرئيس.

السادات قال لمعاونيه: "أنتم تنظرون إلى الشجرة وأنا أنظر إلى الغابة". وفي عام مئوية مولده لاحت يا طاهر المراجعات، وذهبت إلى أنه لو لم تبرم اتفاقية السلام، لبقيت سيناء محتلة حتى اليوم.

تزامنت زيارة السادات للمنصورة مع بداية عامي الدراسي الأخير في المرحلة الثانوية.. وفي بداية العام نفسه كنت قد بدأت التفكير جدياً في أنني من الممكن أن ألتحق بكلية الإعلام.

في تلك الأثناء، توقفت سينما التحرير الصيفية القريبة من عزبة عقل عن العمل.

كانت بداية أفول دور العرض السينمائي عمومًا في المنصورة، واحدة تلو الأخرى: ركس، أوبرا، النصر، عدن... فيما كان العمل يجري على قدم وساق؛ لافتتاح صالة عرض سينمائي في مبنى قصر ثقافة المنصورة في شارع الجمهورية، الذي يسميه الناس شارع البحر. ربما أطلق عليها سينما أم كلثوم. لم أشهد افتتاحها، ولم يُقيض لي حضور أي نشاط لهذا القصر، الذي كنت كلما مررت عليه أجده مغلقًا بدعوى اكتشاف عيب في تصميمه يهدد بانهيائه.

وحاليًا، أي في 2018، يجري الحديث عن تمويل من سلطنة عمان لترميم المسرح القومي في المنصورة والمشيد قبل أكثر من مائة سنة على الطراز الإيطالي، وتحويله إلى دار أوبرا. هو أصلًا

من ملحقات قصر أمينة هانم زوجة الخديوي توفيق، وبني عام 1870 ووفقاً لأوراق ملكية المبنى الموجودة في حي غرب المنصورة، قام المهندس الإيطالي مارييلي عام 1902 بإعادة بنائه..

هو لا يقل قيمة عن مسرح الأزبكية بالقاهرة، أو مسرح سيد درويش في الإسكندرية. وقف جورج أبيض ويوسف وهبي وأم كلثوم على خشبته. وقد أغلق في 2005 وتوقفت أنشطته تماماً. وفي 2010، ظهر مشروع دار أوبرا المنصورة، بعدما أبدت اليابان استعدادها لتحمل كلفته، ولكنها اشترطت إخلاء المبنى بالكامل من الأنشطة غير الثقافية، وتعذر ذلك.

أثار هدم □يلا حسن مصطفى في مدينة السنبلوين لغطاً كبيراً.. تلك ال□يلا معروفة لدى الأهالي بأنها □يلا موشى ديان، وتقول الأسطورة إنه ولد فيها. وهناك من يجزم بأنه ولد في منطقة الحسينية في قلب المنصورة، وأنه فقد عينه اليسرى قبل أن يهاجر إلى إسرائيل. وفي أسطورة أخرى يصر أهالي حارة اليهود في القاهرة على أن موشى ديان نشأ بينهم، وكذلك يزعم أهالي أحياء قديمة في الإسكندرية أن ديان ولد ونشأ بينهم. أما ويكيبيديا، فتؤكد أنه ولد في فلسطين لأبوين مهاجرين من أوكرانيا.

لم يكن يمر أسبوع دون أن أشاهد فيلماً في أي من سينمات المنصورة. كانت دائماً مزدحمة خصوصاً عند عرض أفلام الكابوي.. أكثر مرة ازدهم الجمهور لمشاهدة فيلم مصري، كان عند عرض أفلام "خللي بالك من زوزو"، "أبي فوق الشجرة"، و"الشيء أخت الرسول".

حين زارنا السادات، كانت السينمات تعرض فيلم "المشبهه"، الذي تحقق من خلاله "لقاء السحاب" بين سعاد حسني وعادل إمام.

خلال العام نفسه، قامت سعاد حسني ومعها عزت العلايلي ببطولة فيلم "القادسية"، من إنتاج نظام صدام حسين وإخراج صلاح أبو سيف. وقدمت سعاد في هذه السنة أيضاً فيلم "موعد على العشاء" والذي فتح باب البطولات المطلقة أمام أحمد زكي. شهدت بداية العام تقاعد أول رئيس لدولة أفريقية طواعية، فقد ترك ليوبولد سنجور، حكم السنغال، من دون أن يجبره أحد على ذلك. وشنت إيران هجوماً مضاداً بعد غزو العراق لأراضيها، فأخرجتها منها وكان قد انقضى 18 شهراً على استيلاء جيش صدام عليها. وتم إعلان دمج ليبيا وتشاد، إلا أن فرنسا تدخلت وأبطلت ذلك الدمج.

وفي 19 يناير جرى توقيع اتفاق للإفراج عن الرهائن الأمريكيين في إيران، بعد 14 شهراً على احتجازهم. وفي اليوم التالي تولى رونالد ريغان الحكم في أمريكا خلفاً لجيمي كارتر. في 25 مايو تأسس مجلس التعاون الخليجي، وكانت العراق بين أعضائه، وفي 7 يونيو قصفت إسرائيل المفاعل النووي العراقي.

وفي 27 يوليو مات شاه إيران، وأقام له السادات جنازة عسكرية.. مات في مستشفى المعادي العسكري، وبعد أقل من ثلاثة أشهر ستعلن وفاة السادات من المستشفى نفسه. أما الخامس من سبتمبر، فشهد انتقال مئات من معارضي حكم السادات، وإغلاق الصحف غير القومية.

هل يسمع أحد الآن عن كاتب بريطاني يدعى إلياس كانيتي، فاز بجائزة نوبل في الآداب عام 1981؟

57

بعد أن عدت إلى القاهرة من تلك الزيارة، التي رأيت خلالها خالتي أم كلثوم للمرة الأخيرة، شربت مع أصدقاء بضعة كئوس من البيرة، وجربت ربما للمرة الأولى النبيذ الأحمر، وشرعت فور عودتي إلى البيت في قراءة الجزء الأول من رواية هاروكي موراكامي 1984 .. أثناء صعودي إلى شقتنا في الدور الخامس، لاحظت أن أحدهم كتب على الجدار الذي على يمين الصاعد إلى الطابق الثالث: "no forget for ever 74 وإلى جوارها: "الحب للأهلي فقط"، بعد شطب عبارة سابقة: "الحب حرام". وما إن وصلت الطابق الخامس، حتى وجدت على الجدار الملاصق لباب شقتنا من جهة اليسار الإعلان التالي: "أرجو من الجميع الاحتفاظ بأكياس الزبالاة الخاصة في منزله لحين مجيء الزبال، ومن يخالف ذلك فاحسبي الله ونعمه الوكيل. النظافة من الإيمان".

رجحت أن زوجتي هي من وضع ذلك التنبيه، المختم بتحذير من غضب الله على من سيخالفه.. لكنني اكتشفت في الصباح أن وراءه مالكة الشقة المجاورة لشقتنا، والتي ارتضى الجميع أن تتولى مسؤولية جمع اشتراكات الصيانة وأجرة البواب من السكان، وهي مهمة فشل فيها من قبل أكثر من رجل.

الثابت هو أن لجدي شقيقة تدعى عيوشة، تزوجت وعاشت في قرية الكردي، فمتى جاءت؟ يقال إنه بعد أن استقر الحال بجدي، لحق به أقارب له واستقروا في الشمال.

سمعت من أمي مراراً أنه كان لا يفهم رطانة أقاربه النوبيين، وهذا يرجح ما يقال عن وفوده إلى دراكسة طفلاً، ليجد نفسه وعمته النوبيين الوحيديين في البلدة، التي لم تعرف من النوبيين من قبل سوى الهجانة، الذين كانت تستعين بهم السلطة لإقرار الأمن كلما اقتضى الأمر ذلك، كما في المشهد الشهير في نهاية فيلم "الأرض" ليوسف شاهين.

كان جدي يقرأ ويكتب، ولديه شغف بسماع الموسيقى وزراعة الأعشاب الطبية، فضلاً عن أنه كان بارعاً في إصلاح ماكينات الري والحرث، وفي إعداد وصفات طبية تشفي من علل كثيرة.

وقيل كذلك إنه خلص أعيان القرية بدهاء شديد من "مجرم خطير"، اعتاد ابتزازهم وسرقة أملاكهم، وحين عرضوا عليه بضعة أفدنة مكافأة له، أصرَّ على رفضها، وطلب من أحدهم أن يتنازل له عن خنجر بعمدٍ من فضة، كان شديد الاعتزاز به، فوافق عن طيب خاطر.

كانت خالتي أم كلثوم في تلك اللحظة - لحظة بدء بث العرض العسكري على الهواء- ترضع ابنها إبراهيم.. قالت: "كلها كام يوم ويتم سنة، وبعد كام شهر أطممه".

حمل اسم جده لأبيه. كان آخر العنقود.. سبقه إلى الوجود مباشرة أخوه محمد، الذي حمل اسم خالنا الشهيد في حرب 1973، التي قال السادات إننا سنخرج بعدها من عنق الزجاجة. محمد الصغير هذا مات سريعاً، ربما قبل أن يتم الرضاعة.

طائرات تحلق في سماء ساحة العرض بمنظار مكبر، ثم فجأة اهتزت الشاشة.

إبراهيم فقد تقريباً إحدى عينيه، عندما أصابها شظايا قارورة انفجرت في وجهه، أثناء تجربة عملية في معمل كلية الصيدلة بجامعة المنصورة. تضررت عينه ضرراً بالغاً، ولم تقلح التدخلات الطبية في مداواة العطب الذي أصابها جراء ذلك الحادث، الذي أصرت الجامعة على أنه "قضاء وقدر" وبالتالي ليس عليها تعويض الطالب إبراهيم محمود عن إصابته بـ"عاهة مستديمة".

خالتي قالت: "عليه العوض ومنه العوض"، وردَّ إبراهيم بأنه لا بد أن يهاجر من هذه البلدة الظالم أهلها.

يفصلنا الآن عن تلك الحادثة ما يقرب من 20 عاماً، ولا يزال إبراهيم يشعر بمرارة الظلم، التي يبدو لي أنها ستلازمه حتى نهاية عمره.

لم تقل خالتي: "عليه العوض ومنه العوض"، إلا بعد مشوار طويل مع إجراءات التخاصم مع إدارة الجامعة، انتهى إلى لا شيء.

عقل لم يعد هائماً على وجهه. حتى وقت قريب كان أهل العزبة -كما أخبرني إبراهيم- يرونه جالساً أمام مبنى الإيرادات في شارع السكة الحديد الفرنسي.. أنهكته الشيخوخة فأفعدته عن مشيه القديم، الذي كان أقرب إلى الركض.

كنت أحسب أنه لا وجود "لعقل" هذا إلا في ذاكرتي أنا.

فجأة لم يعد يراه أحد، لا ماشياً ولا جالساً.

ربما يكون قد فارق الحياة.

ولكن من يدري، فربما يظهر مجدداً في محيط ما أحسب أنا ومعني إبراهيم أنه كان يوماً من ممتلكاته.

كنت قد صحت من النوم، وفي ذاكرتي يا طاهر حلم رأيت فيه فخري ماتوسيان يجلس إلى طاولة في مقهى، وإلى جواره شخص بدا مألوفاً لي، ومع ذلك لم أتمكن من تحديد هويته. كنت في مواجهتهما. أبدى ماتوسيان تودداً لم أتجاوب معه. بعد ذلك تحاشيا النظر نحوي، وواصل حديثهما الذي لم أسمع منه شيئاً، فأنصرفت. فتحت التليفون وكنت قد أغلقتة كالعادة عند النوم، فوجدت أن الجرجاوي طلبني فطلبته ولم يرد، ثم بعد نحو ساعة طلبني مجدداً ليخبرني بأن ماتوسيان انضم إلى جماعة "حبايب قصيدة النثر"، التي يقودها عادل كامل، والذي كان ماتوسيان يسميه "الجزمجي".

في صباح يوم السادس من أكتوبر، توجهت إلى عزبة الشحاتين بدراجة، استأجرتها لأجلب "الأمانة" لأبي من "أم أحمد"، ثم عدت إلى البيت ووضعتها تحت مخدته كالمعتاد.

بعد ذلك، ذهبت إلى شقة خالتي أم كلثوم، لأشاهد العرض العسكري.

58

الطاهر: "كان من الممكن أن يرحل البشير مبكرًا جدًا، لولا أن الناس هناك ليست لديهم ثقة في القوى السياسية التقليدية منذ البداية.. زاد على ذلك ما آلت إليه مثلاً سوريا وليبيا. ما يحزن أكثر هنا هو أن الفعل السياسي لدينا في المنطقة مات لجهة هيمنة قوى العولمة المحكمة. الدين هنا ليس سوى قناع تاريخي آخر للتغطية على القمع وتبريره، تماماً كما كان يحدث في الماضي تحت مسمى الماركسية مثلاً. أما أنا فأجد نفسي أعمل منذ أشهر على شراء بيت للعيلة.. الحمد لله هانت وسأعود للكتابة بعدها. حاول يا حسين بقدر الإمكان أن تحدث مساحة ما بينك وبين عام يتسم كثيراً بالهشاشة".

الطاهر: "أنا من أكثر الناس الذين باتوا يعلمون مدى الخطورة واسع الغور، الذي قد ينطوي عليه أحياناً عمل صانعي الأذى الصغار، أو كما قال أمل دنقل: "علمت القلب أن يحترس". جميل أن تستغل زخم الشتاء في الكتابة. نحن نسابق الوقت، هذا الفائز دوماً".

أنا: "دستورنا بيتعدل".

الطاهر: "متابع والله، وهذا ما يُقبض قلبي. إحنا جماهير هذا العالم مجرد متفرجين".

أنا: "سلامة قلبك.. لو كنا مجرد متفرجين، مكانوش اترعوا مننا".

الطاهر: "ربنا يخليك يا صاحبي. لكن هذا جوهر معرفة كانت غائبة عن وعيي لأكثر من أربعين عاماً. حكامنا دمي تديرها عائلتان تتحكمان في مصير هذا العالم، على مدى القرنين الماضيين، عبر مختلف الأقطار مثل قناع الاستعمار. في الدول التي استعمرتنا من قبل، شعوب تعاني الآن من ويلات ما أسميه عبودية حديثة. العائلتان تملكان يا صاحبي بنوك العالم المركزية والعملات حرقياً، وتتحكمان في أسعار النفط والغاز والذهب والفضة والنحاس والحديد والزنك والشاي والقهوة وغيرها صعوداً وهبوطاً".

أنا: "عن أي عائلتين تتحدث؟".

الطاهر: "هل تعتقد حقاً أن ثمة فرقاً بين أوباما وترامب على ضوء هذه الخلفية؟".

أنا: "سأجاريك مؤقتاً، وأجيبك بأن لا فرق، لكن حدثني عن العائلتين".

الطاهر: "روتشيلد وروكفلر".

أنا: "ألا ترى أن هناك بلادًا خارج نفوذ هاتين العائلتين، إذا جاريتك في أنهما تسيطران على العالم؟".

الطاهر: "بم تقدر أن أمريكا غارقة في الديون؟".

أنا: "دع ديون أمريكا الآن، وقل لي: ألا تعتبر روسيا والصين وكوبا خارج تلك السيطرة؟".

الطاهر: "تلك الديون للعائلتين. كذلك دول الغرب الأخرى مثل بريطانيا وأستراليا، مدينة لهاتين العائلتين. بالنسبة للصين، ستجد أن معظم الشركات المملوكة لهما في الغرب نقلت نشاطها منذ فترة إلى هناك، أما روسيا فليست سوى لاعب لتغذية الوهم بالتوازن. لماذا تعتقد أن إسرائيل لا تزال تضرب في سوريا، رغم الحماية الروسية بل وتقتل جنودًا من الروس أنفسهم؟ هذه معرفة جوهرها كامنٌ هناك في تاريخ المال.

عائلتان سيطرتا على الأوروبيين أولاً عن طريق الفوائد والوقية بالحروب بينهم، ومن ثم سيطرتا بواسطة الأوروبيين تالياً على العالم. ومن السخرية إنهما كانا المصدر نفسه، الذي يمول طرفا الحرب في أن. الماركسية والرأسمالية وغيرهما مجرد كلمات أخرى للتغطية على ما يحدث بالفعل.. مصطلح مثل البترودولار، جاء بعد أن أطلقوا يد كيسنجر في المنطقة؛ ليجبر الكل على بيع نفطه بالدولار الأمريكي الذي تمتلكه العائلتان، فالبنك المركزي الأمريكي، قطاع خاص لهما.

أما الرئيس المسكين نيكسون فقد شغله بفضيحة ووترغيت حتى يوقع على قرار رفع غطاء الذهب عن الدولار، الذي صار من يومها يتدأ بالنفط. صدام حسين لم يطيحوا به، إلا بعد أن قرر بيع النفط باليورو. كذلك القذافي الذي كان يملك نحو 150 طناً من الذهب، وأراد إصدار عملة أفريقية خارج سيطرتهم وبيع النفط بغير الدولار، وكذلك بشار الذي أراد أن يبيع النفط بعملة أخرى. وجود عملة أخرى بالنسبة لهما هو مثل الشرك عند الله. إذا ملكت عملة بلد ما، فلا يهمني من سيضع القانون.. هذا ما قاله أحد مؤسسي عائلة روتشيلد يوماً".

أنا: "يا أخي هذا كلام لا يستند سوى إلى نظرية المؤامرة".

الطاهر: "يمكن الاتفاق مع ما تقول.. ربما كان صحيحاً. لا أعلم يا أخي، لكن العيش في الغرب يقربك يوماً من حقيقة هاتين العائلتين.

أنا: "حقيقتهم لا تصل إلى حد القول بأنهما تسيطران على العالم.. هذا كلامٌ مبالغ فيه".

الطاهر: "ربما. عموماً أدخل على رابط قناة "متع عقلك" لتعرف أكثر خصوصاً عن نفوذ عائلة روتشيلد... البحث عن بيت أشتريه، يشغلني بكثافة الآن. الحياة تمر خطفاً..

هناك أوقات أجدني خلالها في حاجة إلى أن أكون راويًا عليماً، ليس فقط بما يقع من أحداث في لحظة السرد، بل وبما سيقع بعدها، وأنسلل حتى إلى النفوس لأكشف ما تتطوي عليه.. ولكن لا أظن أنني يمكن أن أفعل ذلك.

59

ما حكاية سمك البكالاه الذي سمعت أمي تقول إنها كانت تفضله، ومعها أبي، على أنواع السمك الأخرى؟ وما الظروف التي جمعت أمي وأبي ليتزوجا؟ هل كانت في تلك الأثناء تعيش مع أمها وأشقاؤها في المنصورة أم في الدراكسة؟ غالبًا تزوجا على البلاط، فأنا لم أر في بيتنا سريراً ودولاباً ونملية، إلا بعد أن صرفت أمي الدفعة الأولى من دية خالي الشهيد.

راودتني تلك الأفكار والأسئلة، بعد أن فرغت من قراءة الإعلان التالي:

وزارة الإسكان والمرافق والمجمعات العمرانية الجديدة/ هيئة المجتمعات العمرانية الجديدة.

الطرح الأول بمدينة المنصورة الجديدة:

يسر الهيئة أن تعلن عن طرح عدد 1512 وحدة سكنية بمشروع "جنة السكنى" و"سكن مصر".

تسليم خلال 12 شهراً بمساحات تتراوح بين 100 متراً مربعاً حتى 150 متراً مربعاً.

طريقة الحجز والسداد: التخصيص بنظام أسبقية الحجز الإلكتروني.

مقدم حجز يبدأ من 70 ألف جنيه.

ما الرابط بين هذا وذاك؟ لا أدري.

60

اسمه عقل.

أنا لست متأكدًا إن هذا كان اسمه.. لكنني أتذكره الآن، فيلتصق به هذا الاسم دون غيره.

ليكن له هذا الاسم، ما دام يرتبط هو نفسه حتمًا بماض لم أعشه أنا، ولا عاشه أي من أفراد أسرتي الوافدة إلى عزبة عقل، بعد زوال طابع ريفي ميّزها بالتأكيد من قبل.

فمن يكون عقل الذي حمل المكان اسمه؟

وَمَنْ يَكُونُ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذِي لَا تَرُدُّ صُورَتَهُ عَلَى ذَهْنِي، إِلَّا وَوَجَدْتَهَا تَرْتَبِطُ بِهَذَا الْإِسْمِ بِالذَّاتِ؟

فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى الَّتِي رَأَيْتُهُ فِيهَا، كَانَ قَدْ تَخَطَى الْخَمْسِينَ مِنْ عَمْرِهِ عَلَى الْأَرْجَحِ.

وَجْهٌ أَبْيَضٌ مَغْمُوسٌ فِي حُمْرَةٍ تَنْبِيءٌ بَعَزٌ غَابِرٌ. فَوْقَ رَأْسِهِ طَرْبُوشٌ أَحْمَرٌ.. أَنَا لَمْ أَعِشْ أَبَدًا زَمَنَ الطَّرْبُوشِ، وَلَا أَذْكَرُ أَنِّي رَأَيْتُ أَحَدًا خَارِجَ الْمَسْرَحِ وَالسِّيْنَمَا وَالتَّلْفِزِيُونِ - قَبْلَ ذَلِكَ وَلَا بَعْدَهُ - يَعْتَمِرُ طَرْبُوشًا أَحْمَرَ بَزْرًا أَسْوَدَ.

كَانَ يَرْتَدِي جَاكْتًا بَدَلَةً لَوْنُهُ رَمَادِي، وَتَحْتَهُ جَلْبَابٌ كَسْتُورٌ بِخَطُوطٍ خَضِرَاءَ. لَمْ أَرِهِ أَبَدًا بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى النَّحْوِ ذَاتِهِ، صَيْفًا وَشِتَاءً. جَاكْتُ الْبَدَلَةِ فَوْقَ الْجَلْبَابِ، وَيَنْتَعِلُ حِذَاءً أَسْوَدَ نَظِيفًا، لَا أَثَرَ لَغَبَارٍ عَلَيْهِ، وَمِنْ عِنْدِ ذَيْلِ الْجَلْبَابِ يَظْهَرُ جَانِبٌ مِنْ جُورِبِينَ أَسْوَدِينَ.

يَمْشِي بِخَطَى سَرِيعَةٍ؛ لَا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ بَدَأَتْ وَلَا أَيْنَ سَتَنْتَهِي.

يَزْفَرُ ضَجْرًا. كَانَ يَزْفَرُ ضَجْرًا، هَذَا مَا أَدْرِكُهُ الْآنَ، بِمَا أَنِّي كَثِيرًا مَا أَضْبِطُ نَفْسِي عَلَى الْحَالِ نَفْسَهَا، مِنْذُ أَنْ تَقَامَ اِكْتِنَابِي، وَصَرْتُ مَدْفُوعًا إِلَى السَّيْرِ بِخَطَى سَرِيعَةٍ عَلَى غَيْرِ هَدْيٍ، قَبْلَ أَنْ أَعُودَ إِلَى الْبَيْتِ.. الْبَيْتِ الَّذِي يَفَاقِمُ ضَجْرِي، بِمَا أَنَّ دَعَاءَ تَصْرٍ عَلَى مَوَاصِلَةِ النُّكْدِ، أَعْتَبَرَهُ مَلَاذِي.

أَمَّا الطَّاهِرُ فَلَا يَزَالُ يَكْرُرُ فِي رِسَائِلِهِ لِي أَنَّهُ يَحَاوِلُ لِمَلْمَةِ شَتَاتِ ذَاتِهِ لِيَعُودَ إِلَى الْكِتَابَةِ.

أَسْأَلُهُ كَيْفَ تَسِيرُ أَيَّامُكَ، وَكَيْفَ تَنْظُرُ إِلَى الْغَدِّ؟ وَيُرِدُّ: "مَا بَيْنَ خَوْفِ الْمَطَارَدِ، وَرَجَاءِ الْمَحَارِبِ، تَسِيرُ أَيَّامِي، يَا حَسِينُ".

فَأَكْتُبُ لَهُ دُونَ تَفْكِيرٍ فِي مَا يَرْتَبِطُ مَا سَيَأْتِي بِمَا سَبَقَهُ: "قِنَاعَتِي يَا طَاهِرَ الَّتِي أَعْتَقَدُ أَنَّكَ أَخْبَرْتَنِي بِهَا مِنْ قَبْلِ هِيَ كَالْتَالِي: فِي مِصْرَ؛ الْإِسْلَامُ السِّيَاسِي مَعْتَمَدٌ رَسْمِيًّا وَعَلَى أَعْلَى مَسْتَوًى، وَعَبْرَ السُّلْطَاتِ الثَّلَاثِ: التَّنْفِيزِيَّةُ وَالتَّشْرِيعِيَّةُ وَالْقَضَائِيَّةُ، وَهُوَ مَتَغَلَّغٌ، فَكْرًا وَتَطْبِيقًا، فِي شَتَى مَنَاحِي الْحَيَاةِ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي لَا بَدَّ مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِهِ، وَمِنْ ثَمَّ مَسَاءَلَتِهِ، فَلَرَبَّمَا نَنْجُو مِنَ الْغَرَقِ تَمَامًا؛ وَإِلَى الْأَبَدِ؛ فِي ذَلِكَ الْمَسْتَقْعِ".

61

كَتَبْتُ لِي إِبْرَاهِيمَ ابْنَ خَالَتِي، حِينَ أَخْبَرْتَهُ بِاهْتِمَامِي بِمَعْرِفَةِ مَصِيرِ الْأُسْرَةِ الْأَرْمِينِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَعِيشُ فِي مَنْزَلٍ يَطَّلُ عَلَى شَارِعِي الْمَحْطَةِ الْفَرَنْسَاوِي وَسَيْفِ الدِّينِ: "الْبَيْتُ الْإِلَهِيُّ فِي وَشِ مَسْجِدِ الْكَعْكِيِّ كَانَ مَمْلُوكًا لِتِلْكَ الْأُسْرَةِ. الْبَيْتُ كَانَ دُورِينَ، وَصَاحِبَةُ الْبَيْتِ لَمَّا جُوزَ هَا مَاتَ، كَانَتْ عَائِزَةً تَتَخَلَّصُ مِنَ الْمَسْتَأْجِرِينَ اللَّيْلِ وَآخِذِينَ شَقَّةً فِي الدُّورِ الْأَوَّلِ، جَابَتْ قَرَارَ إِزَالَةِ لِلْبَيْتِ.. مَكَانَتِشْ تَعْرِفُ إِنْ الْقَرَارَ

لَا يَنْطَبِقُ عَلَى الدُّورِ الْأَوَّلِ.. فَكَانَتْ النَّبِيْجَةُ إِزَالَةُ الدُّورِ الثَّانِي وَبَقَاءُ الْمَسْتَأْجِرِينَ فِي الدُّورِ الْأَوَّلِ.

صاحبة البيت كان عندها اثنتان أولاد، واحد اسمه نيقولا والثاني ماعرفش اسمه؛ لأنه هاجر لأمريكا غالبًا في شبابه، وقطع كل صلة له بمصر.

نيقولا كان عنده بنتين هما إيلي ورثوا البيت، ماجدة ومنى.

منى كانت عايشة في البيت "الدور الأرضي عبارة عن شقتين"، واتجوزت من موظف بسيط اسمه نادر، وماجدة عايشة في جديلة. بعد وفاة منى، ماجدة طلّبت حقها في البيت من نادر ودخلوا في مشكلات وصلت للقسم.. السيد ابن المرحوم مرسي توحيد، قرر إنه يستغل الفرصة فأقنع ماجدة إنه يشتري نصيبها في البيت بـ 10 آلاف جنيه بس (سنة 2009)، وعمل معاها عقد بـ 43 ألف عشان نادر ما يستغلش الشفعة وطلب من ابن ماجدة يمضي على العقد كشاهد، بعدها حاول أنه يحط إيده على المحل إيلي على الناصية.. لكن نادر تصدى له، وبالتحري عن العقد اتضح أن السيد كان متعجلًا إتمام البيعة، فكتب العقد على نسخة من إيلي بتتباع في المكتبات وما حدّش فيها حدود البيت، دا غير إنه ما أخطرش نادر ولا المستأجرين، يعني العقد لن يعتد به.. لكن لحد الآن مفيش نزاع قانوني حصل على البيت ولا زالت الأمور معلقة".

تصورت أنه سيتوقف عند هذا الحد، ولكنه أضاف: "البيت إيلي جنبه على شارع المحطة الفرنسي كان فيه مكتب البريد، بعد الحكومة ما سابته أخده أشرف ابن صاحب مصنع البلاستيك، إيلي اتجوز نعيمة جارتها، وفتحه محلين، واحد بقالة والثاني منتجات مصنع البلاستيك. جنب البوستة كانت مقلة خليفة الصعيدي. خليفة بنى بيت في شارع مسجد أبو حليلة، والمحل حاليًا ابنه الكبير فاتحه بس نشاط ثاني. جنب المقلة كان محل توكل بتاع وابور الجاز، وبعد وفاته المحل اتقفل.. بس غالبًا مراته لسه بتدفع الإيجار. فوق المحليين كان في أسرتين مسلمتين.

البيت إيلي جنب بيت الأرم من جوه الشارع 3 أدوار، كلهم مسيحيين، أصحاب البيت كانوا ساكنين في الدور الثالث: الفونس وأسامة وإيميل أولاد المعلم حلیم النجار. الدور الأرضي كان فيه واحد اسمه شفيق، كان عنده 3 أولاد، ماجد ودا لسه عايش في البيت، شريف ودا عايش في شارع 10، ومحب ودا مهاجر إيطاليا، الدور الثاني كان فيه أم عندها بنتين وولد: البنت الكبيرة كانت مخطوبة لأسامة حلیم، وبعدين حبت ترزي سلفي من الدراسات فأسلمت ولبست النقاب وهربت معاها، بعد 15 سنة رجعت البيت كمسيحية مرة ثانية، وبعد فترة من العزلة وعدم الخروج من البيت إلا في عربية يقودها قسيس، كان ببيجي لهم البيت، هاجرت أمريكا مع أمها، وماعرفش أختها وأخوها راحوا فين، أكيد هاجروا معاها، بس الناس طبعًا بيتكلموا عن البنت بس عشان قصتها.

البيت إيلي جنب ده كان دورين، الأرضي فيه الشحات النجار المسيحي وزوجته الجميلة وبنتين وولد، من كام سنة اتقلوا لآخر الشارع والشحات قلب الشقة جارسونيرة لحد الناس ماعملوله فضيحة ومابقاش بيجي البيت، الدور الثاني كان فيه مدرس موسيقى وطبال في فرقة، اسمه منير، مراته كانت رقاصة سابقة، وكان عنده ولد اسمه محمد وبنت قعيدة، الأم كانت معتادة على التسول بالبنت في سوق الشيخ حسنين، وما زال الناس بيشوفوها وهي بتتسول بس من غير بنتها ومحدش يعرف مصيرها، الولد كان مشهور بالشذوذ الجنسي، أبوه جاب له عروسه بنت عازف معاها في

الفرقة كانت من الدارسات تقريباً، ورغم أن أهلها عرفوا وضع الولد من الناس في العزبة وافقوا على الجواز.

الناس وقتها توقعوا إن البنات مش مطبوطة وقد كان، نامت مع معظم شباب الشارع تقريباً، وخلفت بنت، كتير بيقلوا إنها بنتهم، بعد كده اتطلقت ومحدث يعرف عنها حاجة. على الشارع الرئيسي كان بيت مرسي توحيد، إللي كانت فيه القهوة، ثم محل الفراخ. البيت دا آل لولديه السيد وإبراهيم، ولما هدوه وجم بينوا برج، الحكومة خدت منهم كام متر للشارع فنتج عن ده البيت المشوه اللي شبه مثلث الجبنة.

البيت إللي جنبه جوه الشارع ملك للشحات ابن مرسي توحيد. البيت ده كان مستأجر فيه واحد اسمه عوض اشتهر بقسوته على أولاده، كان عنده اتنين شباب محترمين جداً، الصغير كان اسمه نادر وكان مشهور بقوته البدنية وبأنه فتوة بيقف جنب الضعفاء، وكان عندهم محل بقالة في البيت المثلث إياه.

في أحد شهور رمضان، كانت فيه خناقة مشهورة، 3 شباب من عزبة الشال جايين عزبة عقل يتخانقوا مع ولد عاكس بنت عندهم، عيل صعيدي اسمه ياسر كان مشهور بأنه فشار وبياع كلام. ياسر استخبي في بيت والناس كلها جريت من قدام العيال دي ماعدا نادر، جاب سكينه كان بيقطعوا بيها اللانشون وجراهم قدامه مع أنهم كانوا مسلحين، وللقدر اتكعبل في كوم رمل قدام مسجد الكعكي إللي كان لسه بيتبني، ولما وقع ولد منهم رجع وضربه في بطنه فتحها له بالعرض، الولد مات وأبوه جات له صدمة، حط يافطة على الشارع باسم شارع الشهيد نادر عوض، وطبعاً الحكومة شالتهاله.

البيت إللي جنبه جوه الشارع، كان ملك لواحدة من بنات مرسي توحيد، كان عندها 4 أولاد: فاروق وماهر وجمال ومحمد، وبنيتين، الست لما كبرت ولادها طفشوا السكان وباعوا البيت لواحد من السنبلادين، فاروق وماهر وجمال أكلوا حق أخوهم محمد؛ لأنه كان أقلهم مالاً وسطوة. هو كمان كان أصغرهم سناً، وانتهى به الحال أنه فتح كشك جنب المسجد وعاش حياة ضنك مع أنه المفروض يبقى مليونير.

الدور الثاني في البيت دا كانت فيه عيلة دياب الميكانيكي، رباب ونجلاء ومحمود... أولاده كانوا مشهورين بأنهم عمالقة حجماً، البنيتين كانوا صواريخ مع ذلك وخصوصاً نجلاء، الولد كان شاذ برضو. نجلاء كانت حلم كل الشباب ومشيت مع عدد لا بأس به. وفي الآخر اتجوزت شاب نقاش في قصة مشهورة؛ لأنه كان مرسال بينها وبين ولد كانت على علاقة معاه، الشاب دا كان ساكن فوق البوستة إللي كانت على الشارع.

البيت إللي كان جنب بيت مرسي توحيد، كان بيت قديم 3 أدوار وكان في آخر حارتنا، السيد ابن مرسي توحيد اتفق مع شريك، غالباً من عيلة هريدي، وعملوا كل ما يمكن لتطفيش السكان. آخر ناس منهم كانوا سكان الدور الثاني إللي اتفقوا مع شاب منهم، لما والدته كانت في راس البر قالهم فجابوا واحد عربجي من طرفهم قعدوه في الشقة، بعدها اشتروا البيت، بس ماكانش معاهم فلوس

بينوه فباعوه لواحد اسمه الدسوقي بـ 72 ألف جنيه، هذه وبني برج مكانه، بعد البيعة دي بشهر السيد مرسى جاله شلل نصفي، لسه بيعاني منه لحد دلوقتي.

حارتنا طبعًا فيها قصص كثير، بس لما تيجي بقى أنت عزبة عقل هتحكي لي وأصححك".

بدأت خالتي وكأنها قد قررت أن تضع بنفسها حدًا، لما يمكن اعتباره ترددًا من جانب ملك الموت. أو هكذا صور لي عقلي الذي غلبه الارتباك، وأنا أراها ترفض الأكل والدواء وترفض حتى الكلام المتعثر؛ بسبب الجلطة التي أثقلت لسانها كما أثقلت الجانب الأيسر من جسدها، الذي ظل حتى اللحظة الأخيرة محتفظًا برشاقتة، من حيث الشكل على الأقل. جسد فارغ وورثته عن والد أسطوري، مع امتلاء لا ينتمي، لا إلى النحول ولا إلى البدانة.

نقلوها إلى مستشفى المنصورة الدولي حيث فاضت روحها.. أصروا على أن تخرج من الشقة التي قضت فيها معظم سنوات عمرها. حملت سيارة الإسعاف الجثمان إلى البيت؛ حيث تم الغسل والتكفين فيما كنت أنا وماهر وزوجته داليا وابنه علاء الدين في الطريق إلى المنصورة بسيارتي، بينما فضلت دعاء القطار، مصطحبة ابنا باهر في صباح اليوم التالي لتقديم العزاء.

لم تقم أم آمال بتغسيل خالتي أم كلثوم وتكفينها.. هذه باتت مهمة متطوعين ومتطوعات من جماعات سلفية.

قبل أن ينتهي عام 1981، كانت أم آمال قد اعتزلت مهنة الحانوتي في عزبة عقل، أو تجهيز الموتى للدفن. هي بدأت متخصصة في السيدات، ومع الوقت كان يستعان بها في تجهيز الرجال لسفرهم الأخير.

أصابها العمى بعد سنوات طويلة في عمل لم تعرف غيره في حياتها، التي عرفت خلالها الترمل مبكرًا. كانت بعد تشييع الميت أو الميته، تلتزم بمجاملة أهله أو أهلها من النساء في افتراش الشارع لثلاثة أيام؛ لتلقي العزاء وإشعال فتيل العويل والندب.

لم ترزق من الأولاد يا طاهر سوى بابنة؛ بلغت الثلاثين من عمرها ولم يتقدم أحد للزواج منها.. كانت تفنن إلى الجمال، فضلًا عن ما يبدو على تصرفاتها من عبث، ولكنها ظلت تعتقد أن العنوسة كُتبت عليها بسبب عمل أمها، ولهذا كرهته بشدة ورفضت أن ترثه، فوجد شيوخ السلفية الفرصة سانحة ليحتكروا هذا النشاط.

ما إن أعلن الخبر، حتى بدأ توافد الأهل من الدراكسة والمحمودية وديم الشلت وميت محمود والكردي والقاهرة والجيزة وأحياء عدة في المنصورة، فتمكن معظمهم من حضور لحظة خروج خالتي، من شقتها في الطابق الأرضي إلى سيارة الإسعاف مرة أخرى، ومن ثم إلى جامع الكعكي لصلاة المغرب، فصلاة الجنازة، التي تمكنت من حضورها، بعد أن ركنت السيارة قرب الجامع.

تحركت سيارة الإسعاف إلى تـرب العيسوي، وسرنا من حولها وأمامها وخلفها. توقعت أن يلتزم أولاد خالتي بوصيتها بأن تدفن مع أمها وشقيقتها انتصار، ولكن سيارة الإسعاف تجاوزت مدفنهما، الذي يضم أيضًا رفات أبي، ووقفت على مقربة من مدفن عائلة مرسي توحيد. في المدفن ذاته يوجد رفات زوج خالتي أم كلثوم، ويبدو أن أولادها أجمعوا على أن يوارى جثمان أمهم في المدفن ذاته، متحاشين تنفيذ وصيتها حتى لا يقال – ربما- إنهم دفنوها في مقبرة، تصدق بها صاحبها للفقراء.

63

"كل برهة تتلاشى في نفخة وتتحول في الحال إلى ماضٍ؛ فالواقع عابر وزائل. محض حنين. بهذه الصور وهذه الصفحات أبقى الذكريات حية؛ فهي فرصتي للوصول إلى حقيقة متقلبة، ولكنها حقيقة على أي حال، تثبت أن هذه الأحداث قد جرت، وأن هذه الشخصيات مرت في قدري. وبفضلها أستطيع أن أبعث أمي، التي ماتت حين ولدت، وجدتي المحنكتين، وجدي الصيني الحكيم، وأبي البائس، وحلقات أخرى في سلسلة أسرتي الطويلة، جميعهم من ذوي الدماء المختلطة والملتهبة.

أكتب لأجلو الأسرار القديمة في طفولتي، ولتحديد هويتي، ولأخلق أسطورتني الخاصة. فما نعمله في آخر المطاف ملء أيدينا هو الذاكرة التي نسجناها.. كل واحد يختار درجة اللون التي يروي بها قصته الخاصة، وأنا أرغب في أن أختار الطبع بالبلاتين دائم الوضوح، ولكن ليس هناك في قدري ما يملك هذه الخاصية المتوهجة.. إنني أعيش ما بين درجات ألوان مختلطة، وأسرار مغشبة، وارتياب؛ اللون المناسب لرواية حياتي يتفق أكثر مع لون صورة عتيقة باهتة".

بطلة رواية "صورة عتيقة"، ستمكن يا طاهر في النهاية من لمّ شتات ماضيها، منذ أن ولدت وستلم حتى بملابسات ارتباط أمها، التي ماتت وهي تلدها بأبيها الذي رفض الاعتراف بها، وتغاضى عن حملها اسم شخص آخر.

لكن ماذا عني أنا يا صديقي؟ الشتات الذي لفظته الذاكرة لا يزال يبدو أصعب من أن تتمكن من استعادته على نحو مماثل، على الأقل الآن.

الذكرى يا أخي هي حدث نتذكره، فماذا عن أحداث مُحييت؟ قد نجاهد لتذكرها، فننجح أو نفشل.. قد لا نحاول، ومع ذلك تدهمنا. وفي الأحوال كافة يزداد الاكتئابُ رسوخًا في الوجدان.

لا أعرف حتى الآن لماذا لم يكن أبي يشتري بنفسه حاجته من الأفيون، وكان يرسلني لجلبه من أم أحمد في عزبة الشحاتين، أو من دعبس في شارع المديرية، أو من أم خليل في شارع جانبي، موصول بالشارع الكبير في عزبة عقل، والذي كنا نسميه أيضًا شارع المجاري، فيما اسمه الرسمي هو شارع الهادي. كان يعود إلى البيت قرب الفجر، فيتعشى ثم يدخل الحشيش على الجوزة. هذا يعني أنه كان يجلب معه ما يلزمه من الحشيش، فلماذا لم يكن يجلب كذلك سينة الأفيون، التي يستحبها مع الشاي والقهوة بعد عصر كل يوم استعدادًا لنزوله إلى الشارع. تساءلت في حضور إبراهيم الصايح زوج شقيقتي أمل، وكنت في زيارة للمنصورة، قبل وفاة خالتي أم كلثوم ببضعة

أيام، فقال إن بائع الأفيون لا يبيع الحشيش، وبائع الحشيش لا يبيع الأفيون.. هذا ينشط في الليل وذلك ينشط نهارًا.

64

السيد الأستاذ جميل المنشاوي

رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير وكالة المحروسة للأنباء

تحية طيبة وبعد

أرجو النظر في التماسي بإعادة النظر في قرار سلفكم الأستاذ ضياء المحروقي بإلغاء التعاقد مع مصحة الكوثر، وكذلك قراره بإلغاء التعاقد مع أي طبيب نفسي، وقراره الامتناع عن دفع قيمة أي كشف تزيد عن مائة جنيه، وأنا إذ أتقدم لسيادتكم بهذا الالتماس، فإنما أعلم أنه طلب شخصي، بما أنني أعبر عن نفسي وحسب، مع يقيني بأن هناك بالتأكيد كثيرًا من الزملاء في مثل حالتني من بين موظفي وكالتنا الموقرة".

مقدمه: حسين عبد الحميد جاد

مدير التحرير المشرف على القسم الثقافي

رفعت هذا الخطاب إلى المنشاوي، عقب علمي بوفاة زميلة لنا في الوكالة.. توفيت بعد أن مكثت نحو عشر سنوات في الكوثر.

مضت أيام عدة من دون أن يرد.. وعندما قابلته مصادفة، وهو يهيم بالخروج من باب الوكالة، قال لي: "لا لزوم لأن نتعاقد مجددًا مع الكوثر، أو غيرها من المصحات.. لكن لو كنت ترغب في دخولها، سأكلم طبيب الوكالة ليتخذ ما يلزم".

قلت له: "شكرًا على اهتمامك". فقال: "العفو.. أنت تعلم جيدًا غلاوتك عندي".

بوفاة خالتي أم كلثوم، توقف صرف معاش الشهيد محمد توفيق ريحان يوسف.

كانت قد باشرت صرفه عقب ترملها.. كان قد توقف صرفه بوفاة جدتي لأمي. وبعد أن ترملت أمي في بداية 1995، كان يحق لها المطالبة بهذا المعاش، ولكن لم ينبهها أحد. وخالتي زهرة أيضًا لم تستقد منه بعد ترملها.. كنا نحسب أنه بوفاة جدتي يتجمد معاش الشهيد. ولكن قريبًا لزوج خالتي أم كلثوم سعى لإحياء هذا المعاش، فجرى تقسيمه بينها وبين أمي. ثم تجمد نصيب أمي بوفاتها

وواصلت خالتي أم كلثوم صرف 600 جنيه شهرياً، أعانتها بالتأكيد على شراء الأدوية الكثيرة، التي كانت تحتاجها في السنوات الأخيرة من عمرها.

سأل فوكو: "هل يمكن أن نرى في نيتشه شخصاً، كان يعاني من اضطراب عقلي؟" وسأل فوكو أيضاً: "هل المثالية ادعاء؟" أو ربما أكون قد طرحتُ على نفسي ذلك السؤال.. لا أتذكر. لكن كتاب نيتشه "هذا هو الإنسان" هو كتاب مفكك، كما ذكر مترجمه إلى العربية مجاهد عبد المنعم، بما أن مؤلفه كان يعاني من اضطراب عقلي، فتأرجحت ومضاته غالباً بين الإبداع والجنون، ومنها أن المثل أو ثان. قد يكون ذلك القول وراء تساؤلي، أو ربما تساؤله هو عما إذا كانت المثالية ادعاء.. هو يقول أيضاً إن ما هو محرّم تحريماً شديداً هو دائماً الحقيقة!

أليس في ذلك يقين؟ الرجل لا يتشكك بل يقرر يا صديقي ما يقرره بيقين تام، فيما يطبق فخري ماتوسيان وصيته: "إن رجل المعرفة لا يجب أن يقتصر على محبة أعدائه، بل يجب أيضاً أن يكره أصدقاءه".

65

رسالة إبراهيم الطويلة كتبها بعد مرور نحو شهر على وفاة والدته. كان يفترض أن أمكث بضعة أيام في المنصورة بعد تلقي العزاء. ولكنني لم أمكث لأكثر من ليلتين. توقعت أن أرى سهام في العزاء.. قلت ربما يكون قد وصلها الخبر، ولكنني لم أجدها بين المعزيات. لم أسأل أحداً عنها. أخبارها أصلاً منقطعة عن ناس عزبة عقل منذ سنوات طويلة، تلت انتقال أهلها إلى بيت شيدوه في عزبة الشال.

هكذا اختتم إبراهيم رسالته: "بالنسبة لي أنا شخصياً، لك أن تكتب ما تشاء طبعاً، في أوراقك، بس ما أفضله مختلف حبتين عما تعرفه أنت. مثلاً أنا كنت باحلم بالهجرة منذ الصبا، كان حلمي أبقى عالم أخذ جائزة نوبل، ودخلت صيدلة أصلاً عشان أعرف أهاجر، الحادثة إللي حصلت لي في الجامعة كانت بسبب الإهمال، وكان ليها تأثير مدمر طبعاً على شخصيتي، برضو رد فعل أمني كان مختلف حبتين، أولاً هي عزت إللي حصل للحسد كالعادة في كل مشكلة تخصني، وثانياً قوتها كانت أحد أسباب تغلبي على الموضوع، الصدمة يومها كان ليها تأثير مختلف علياً أنا، فقدت إيماني بكل شيء حتى الآلهة، بعد ماكانوا الناس في العزبة بيحبوني، عشان باعدي على ولادهم نصلي الفجر في الجامع، وغالباً من أيامها مابقينش منتظم في الصلاة أصلاً، حقيقة أنا أكيد شايف في حياتي الكثير مما قد يكتب أو لا، عشان كده أحب إنك تكتب ما تراه، بس طبعاً لو في لقائنا قلت لي هتكتب إيه وأخذت رأيي، هاكون سعيد جداً".

66

كان من السهل أن ألاحظ أن سلمى حين التقينا عند مدخل وكالة أنباء المحروسة، ترغب في أن نتحدث. توقعي سعيها إلى ذلك جعلني أتوتر، كلما توجهت إلى حيث لا يستبعد أن نلتقي في شكل يبدو لكلينا أنه وليد المصادفة، أمر لم يرتب أيُّ منا لحدوثه، ولكنه متوقع تمامًا بحسابات الوعي، واللاوعي أيضًا.

أخيرًا تكلمنا.. هي فتحت الكلام في موضوع طلاقنا. قالت إنه تم بناء على سعي مني. ذكرتها بأنها ألحَّت في طلبه، بل ضغطت على أعصابي بمنتهى العنف من أجله.

قالت إنه ما كان ينبغي أن أستجيب لذلك الإلحاح العنيف لو كنت أحبها.. قالت إنها سقطت مغشيًا عليها، عندما أبلغها شقيقها الأكبر عبر الهاتف بأنني طلقته. هي كانت قد فوّضته بموجب توكيل رسمي في إتمام الطلاق، مع أنها كانت في القاهرة في إجازة في ذلك الوقت.

في لحظة فقدانها للوعي- بحسب روايتها التي لا أشكك هنا في صحتها- هاتفنتي صديقة لها ولامتني بحة على أنني طلقته، وقالت مستكرة: "هو أنت ما صدقت؟"، ثم أضافت قبل أن تقطع الاتصال: "على فكرة أنت مش راجل!".

أنا حكيت لسلمى في لقاء المصادفة ما قالته صديقتها، وقلت لها إنني كنت واثقًا من أنها كانت معها في تلك اللحظة، فقالت إنها ساعتئذٍ كانت غائبة عن الوعي.

قالت ذلك عن نفسها، لا عن صديقتها. قالت أيضًا إنها ظلت لسته أشهر بعد ذلك في حالة نفسية سيئة، وانتظرت دون جدوى أن أتصل بها.. عامان - على الأقل - انقضيا على طلاقنا. هي لم تعرف طوال ستة أشهر من تلك المدة سببًا؛ بحسب روايتها - التي لا أشكك أيضًا في صدقها- للخروج من أزمة نفسية ترنبت على تطليقي لها.

سألنتي بما يمكن صياغته بالفصحى على النحو التالي: "ألا يرؤدك حنينٌ إلى تفاصيل عشناها عندما كنا زوجين؟" تعجبتُ، وقلتُ لها يا طاهر ما مفادُه أن هذا أمر يخصني وحدي.. قالت إنها تتألم لأن الذي كان يجمعنا صار لها وحدها!

ثم فجأة كتبت على صفحتها على الفيسبوك ما اعتبرته رسالة موجهة لي أنا بالذات: "الراحة والتوازن والاستقرار النفسي مهم أوي علشان نعرف نكمل في الحياة، من غير أمراض عضوية ونفسية. وعلشان كده لما نكون في علاقة، أي نوع من أنواع العلاقات الإنسانية، والعلاقة دي بتستنزف طاقتنا وبتمثل لنا ضغط، ومع ذلك إحنا بنحاول نأقلم نفسنا علشان منخسرش ناس بنحبهم بس هما مش مقدرين ده وفاكرين إن قدرتنا على الاحتمال لا تنتهي وإحنا برضو نيجي على نفسنا ونستهلك طاقتنا الجسدية والنفسية والعقلية والعصبية. النتيجة في الآخر أننا هنوصل لفقدان كل طاقتنا في الحياة وممكن؛ حتى نفقد نفسنا بالمرض وندخل دايرة منخرش منها. والنصيحة بقى إننا منستهلكش طاقتنا كلها مع أي حد، مهما كان هذا الحد قريب منا، ونعرف إمتى نقفز من المركب، قصدي العلاقة، وننقذ ما تبقى منا ومن حياتنا".

في تلك الليلة حلمت بأني: كنتُ وسط مكاتب فخمة في مكان يزخر بنساء أنيقات، وأنا أطلب منهن أن يعطينني ما يثبت حصولي على الثانوية العامة.

طال الحلم إلى أن انتهى، من دون أن تلبي أي منهن طلبي.

كن هادئاً جداً، رغم صراخي المتصل في وجوههن، يا طاهر.

67

من أعمال دعاء التطوعية، يا طاهر، إعطاء الحقن لمن يحتاجها.

ترفض أن تتال عن ذلك أي أجر.. تقوم بهذا العمل في محيط الجيران. وعندما كنا في الحج في 2016 على ما أذكر، عرضت على البعثة الطبية المصرية في مكة المساعدة، وقبلوا منها ذلك شاكرين. هي أيضاً تتطوع بين الحين والآخر للقيام بأعمال ضمن نشاط أحد فروع جمعية رسالة الخيرية في المعادي، وتتبرع لهم بمبلغ عشرين جنيهاً شهرياً، وبما نستغني عنه من ملابس وما شابه.

تقول للجيران الذين تحرص على أن تكون علاقتها بهم في أضيق نطاق ممكن، إنها كانت تعمل ممرضة. في الواقع هي عملت لنحو عشرين عاماً مساعدة لأطباء بيطريين في "بيت الحيوان"، في معهد تيودور بلهارس، وهو مخصص لاقتناء حيوانات التجارب. بادرت دعاء بترك تلك الوظيفة، بعد أن بلغ باهر السادسة من عمره. لكنها بين الحين والآخر تحب أن يعرف أولادنا وأقاربنا عموماً وحتى جيراننا أنها مازالت تعمل، وتحصل من عملها على دخل، يجعلها ذات ذمة مالية مستقلة. وبالتالي تنزل من البيت في بعض أيام الأسبوع صباحاً وتعود في المساء، تماماً مثل من تجمعن بين العمل في البيت وخارجه نعم؛ عملتُ يا طاهر حملاً حقائب في محطة أوتوبيس شرق الدلتا. هي قريبة من شارع المديرية، ولها مدخل من شارع البحر الصغير. كان معي أخي الأكبر.. كنتُ في وقتٍ ما من طفولتي أسير حافي القدمين. يبدو لي الأمر الآن وكأنه محض توهم، ثم ما يلبث أن يصفعني تيقني من أنه قد حدث بالفعل. لا أذكر متى حدث تحديداً ولماذا. لكنه حدث.. ربما عندما كان أبي محتجزاً في مستشفى أحمد ماهر لعلاج تصلب الشرايين.. لا أذكر شيئاً من ذلك، لكنني علمتُ به من حكي أمي المتكرر عنه.. ربما بعد سنوات عدة من حدوثه.

عشتُ ذلك بالتأكيد، ولكنني لا أتذكره.

68

يتكرر الحلم: أراني أسير عارياً في شوارع أعرفها وسط ناس أعرفهم، أتوسل إليهم صامتاً ليسترني أحدهم. وفي الحلم نفسه أراني متعثراً في دراستي الجامعية، ويملأني مع ذلك إصرار على مواصلة

الدراسة، والغريب هو أنني أبدو في الحلم مدرّكًا لاجتيازي المرحلة الثانوية بتفوق، ولتخرجي بعد ذلك في الجامعة، فتنتابني الحيرة من أمري. ومرة أراني أفتش عن دعاء، ولا أجد سبيلًا للوصول إليها، وأجد من يوسوس لي أن لها أختًا تشبهها تمامًا، فأجدي أراها وهي في بيت أسرتها لا تدري شيئًا عما أعانيه، وكلما حاولت الاتصال بها أفضل بصورة ليس لها ما يبررها. يحدث ذلك ويتكرر فيما دعاء نائمة إلى جواري، فتجدد حيرتي في الصحو، كما في الحلم.

دعاء: "هل يؤلمك هذا؟"

أنا سعيدة بهذا جدًّا.. فلکم أمتني.

"لا يهمني إن كنت فعلت ذلك متعمدًا.

عن نفسي، لا أنكر أنني أتعمدُ إيلاكم."

لم تتفوه دعاء مستجاب، بحرف من هذا الكلام. لكن حسين قرأه في عينيها. كان يسمعه في صمتها، ويخمن أنها ربما تقوله لصديقتها التي تقرأ لها الفنجان بانتظام. سلمى لها أيضًا صديقة تلجأ إليها أحيانًا؛ لنقرأ لها الفنجان. تقول إن ما تقوله يتحقق، فيسألها حسين: "ما الذي قالته وتحقق؟" لكنها لا تجيب، وتغير الموضوع بأن تطلب منه قبول سلفة جديدة منها، على أن يردها عندما تنفجج أزمة "عرب اليوم".

ووجدتني يا دعاء في حلم آخر؛ أعرف أنك لن تمنحيني فرصة حكيه لك، وكأنما أستكثر أن يتم توقيف أخي الأكبر، الذي يعرف الجميع أنه القاتل، فيما أنا أتفرج صامتًا، ولا يوجه لي أي اتهام على الإطلاق.

قصة ذلك الحلم جريمة قتل.

الجثة ممددة على أرض غرفة، نصفها الأسفل من الحجارة والأعلى من بوص، فيما تعرشها أعمدة خشبية فوقها بوص تغطيه طبقة طينية كثيفة. أنظر إليها من كوة لأجدها في مكانها.. وبعد يومين يُكتشف أمرها، وتأتي الشرطة لتقبض على أخي الأكبر.

أراقبهم من حيث يمكنهم رؤيتي بوضوح.. ولكن لا يلتفت أي منهم نحوي. يثقل إحساسي بالذنب وأكاد أصرخ: "أنا شريكه في القتل، أو ربما أكون أنا وحدي القاتل، بما أنني لم أستطع منعه قبل ذلك من ضرب أمنا وأبينا والتحرش بأختينا الصغيرتين"... لكن ماذا عن ماهر؟ هل نجا من إيذائه؟ لا أظن، لكني لا أتذكر مشاجرة جمعتهما، قبل أن يفرا واحدًا بعد الآخر إلى العراق، إلى أن يعودا معًا خالي الوفاض في طائرة بضائع، عشية اجتياح تحالف دولي، تقوده أمريكا بعد حصار كاد يأتي على الأخضر واليابس.

هي الغرفة الطينية نفسها التي كنت أتلصص من شقوقها على زوجين في أوقاتهما الحميمة.. في البداية كانت تصلني تأوهات اللذة، ثم بتُّ أرى ما يحدث صورةً مغبشةً بضوء خفيف.

لا زلت حتى الآن أراه، كلما اشتقتُ للكوثر وأهله، العائش منهم والميت على حد سواء: سعاد حسني وصلاح جاهين وداليدا، ومنعم عبدالعزيز، وحامد عبدالدايم، وبيشوي، وأحمد عبدالحميد، ومحمود صابر، وحسن توما، ومحمد الشرقاوي، ومي عبد الكريم، ونشوى حمدان.

تمنى حسين أن تموت دعاء، أو أن يموت هو، لتطوى صفحات تلك المسخرة على حد تعبيره. قال لنفسه: إنها لو ماتت سيتخلص من سخفها الدائم، ومن قسوتها غير المبررة، ولكنه لم يستطع أن يجد تفسيراً لبكائه المرير في الحلم؛ لأن شخصاً لا يعرفه انتزعها لنفسه، وبات من المستحيل أن يتواصل معها، فهو لا يعرف سبيلاً لبلوغ المكان الذي أخفاها فيه غريمه المجهول، فيما يصر من شاركوا في المؤامرة على الصمت؛ كلما سئل أياً منهم عن كيفية الوصول إليها.

لكن ما الذي أتى بـ"عقل" في هذا الحلم؟ ما علاقته بما يعانيه حسين مع دعاء؟ لماذا يصر على أن يظهر له في صحوه ونومه، رغم مرور سنوات طويلة على نزوحه شبه التام عن عزبة عقل؟ في كل ليلة يدخل في عراك مع النوم إلى أن يغيب عن الوعي.

يبدأ ذلك بعد ساعتين تقريباً من تناول قرص "سيروكويل 25"، وربما يستغرق العراك ساعة أو أكثر، وخلالها يتقلب على الجنبيين ويضرب فخذه ويفكر في أن ذلك لا يصدر إلا من مجنون، لولا أنه

لا يزال يحرص على ألا يراه أحدٌ وهو على تلك الحالة المثيرة للارتياح، والتي سبق أن أثارت استياء دعاء قبل أن يقرر النوم وحده، وفي باله أنه يعمل وفق ما جاء في القرآن: "واهجروهن في المضاجع".

تمت